مجموعة قصصية

وترقصين

أحمد المؤذن

Des. Heba Ebrahim

وترقصين

بوقار
بيت الأدب

أحمد المؤذن

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

نوع العمل : مجموعة قصصية

الكاتب : أحمد المؤذن

تدقيق : أروى رأفت – أسماء بكر – رحمة خشبة
فرحة أيمن – ندى هاني – نورهان صبرى – عبير علي

تصميم الغلاف : هبة ابراهيم

تصميم داخلي وتنسيق : سارة عيد

فريق عمل بوقار " بيت الأدب " للنشر الإلكتروني

https://www.facebook.com/DarBovaar

"حُــلـم منتهي الصـلاحيـة ؟!"

هل ستضطر إلى التوقف عن استعمال هاتفها الجوال بسببه؟ هذا الرجل لم يتغير، كيف عرف رقمها الجديد؟! يقذف بالكلام السام و القبيح ضارباً عرض الحائط بكل القيم والأعراف.

هذا الصباح صار طعمه لزجاً كما رطوبة الجو، عند دخول" أغسطس" معلنًا شراسة الصيف، مؤكد أن رسالته حانقة ورغم ذلك ستقرأ كي تضحك عليه، إحساس رائع ينتابها وهي تشعل نيران غضبه.

((سأظل مثل الشبح أطاردك يا (......)، تغادرين البيت و ترفعين عليّ دعوة طلاق، أنا زوجك الذي صنع منك امرأة، محمود وسارة وحتى وسام، كلهم صاروا يكرهونك، أخبرتهم بأنكِ لا تريدين الحياة معنا يا خائنة! تريدين الطلاق؟ ستبقين في بيت أهلك تتعفنين في حماية أخوتك، لكن أمامك عشر سنوات قضايا ومحاكم وأنتِ الخاسرة يا (..........).

بوقار بيت الأدب

رمت الهاتف على كنبة الصالون، حتى لا يتعكر مزاجها هذا الصباح، صارت رسائله المتوترة والتي تفوح منها روائح الكلام السوقي مألوفة عندها منذ تسعة أشهر، وضعت جهاز الموسيقى الخاص بها قيد التشغيل، لحظات حتى بدأ صوت " فيروز " يبدد قنوط روحها الموجوعة، " نسم علينا الهوى من مفرق الوادي".

حرصت على تخفيض الصوت، أنسابت مع عذوبة الإيقاع وغناء "فيروز الملائكي،" أبحرت بعيدًا عن كل ما يشغلها أو يفسد حياتها، تغادر الآن أسمنت عالمه ولكن، أمها أستيقظت وها هي تطرق الباب عليها تسأل:

بيت الأدب

-حليمة، صباح الخير، أنتِ مستيقظة؟

-أهلًا أمي، الباب مفتوح ادخلي.

ستدخل الآن وقد تكرر نفس القصة، معتبرة أن المرأة في هذه الحياة إن لم يرضى عنها زوجها وترهن وجودها ببركاته، فلا تحصل على (.....)، كيف أتصرف الآن لو ...، أكيد ستعزف على ذات الوتر.

بوقار بيت الأدب

-يا ابنتي، هداكِ الله، اتصلت بي أم حميد البارحة.

-يعني نفس الموّال يا أمي، لكِ الجنة و نعيمها، لكن لا تكلميني في هذا الموضوع.

-أم حميد كسرت خاطري وهي قالت أن ولدها...

-ولدها واحد لا يحترم نفسه، حرام أكون معه تحت سقف واحد.

-حبيبتي، أولادك يضيعون و...

-من كم سنة صدقتك يا أمي وضحيت، لكنه لم يتغير، الأعوج يظل أعوج حتى آخر يوم في عمره.

-مشاكل ومحاكم وحميد رأسه يابس، ماذا ستفعلين؟

-وبنتك صخرة عنيدة، أهلًا به ولينطح حتى يشبع!

-أنتِ مرتاحة على هذا الحال؟

بوقار بيت الأدب

-طبعًا أمي، أتسوق في أي وقت، اشتركت في نادي صحي وخسرت ثلاثين كيلو من وزني وهمومي، رجعت الشركة التي استقلت منها وفلوسي وحريتي في يدي.

-لكن أنتِ...

أنا أتنفس حياتي من جديد بلا عُقد.

نهضت من مكانها، أقفلت جهاز الموسيقى، فتحت نافذة حجرتها لتترك نور الصباح يدخل بهدوء، أستنشقت بعض الهواء.

-أمي حبيبتي، لم أعد تلك الشابة المسكينة التي تُخدع بالكلام حتى أُرضي نزواته المريضة، صبرت على مشاكله بلا جدوى.

-و الحل يا بنتي ؟

-هذا الرجل كان من المفترض حجره في مستشفى للأمراض العقلية لا أن يتركونه يتزوج، أولاده يتعذبون مثلي!

- الكلام معكِ صعب.

بوقار بيت الأدب

-لأنني جيل مختلف، أقرأ وأفهم ما حولي، يحلم هذا الشيطان أرجع له.

-كيف؟ ماذا تقصدين؟

-أحس أمي أن هذه المرة، لا تسأليني، عندي إحساس مختلف بأني سأرتاح منه!

***

مع المساء تنشد النفس سكينتها هربًا من طحن الحياة، هل ستعود هواجسها تداهمها من جديد كما في بعض التهيؤات المزعجة؟ طردت من مساحة تفكيرها كل المنغصات السلبية المتطفلة ثم عنّ لها مشاهدة برامج التلفاز، الخيار الأنسب قنوات الأغاني، شيء من الفرح المستعار كي ترمم ما تصدع.

من جدرانها الحزينة، وهذا الصوت الرائع "علي الحجار" يغني "يارب يا اللي سايب لي الحبل على الغارب"

انقبضت أحاسيسها، لا تريد هذه الأغنية، ثم فضلت أقفاله فجأة ولم تعد.

بوقار بيت الأدب Bouvar

ترغب في سماع شيء، تناولت هاتفها الجوّال، هذه رسالة من المحامي، تأملت خيرًا فربما هناك خبر جيد "سيدة حليمة، أبا محمود اتصل بي، قبل إعطائك حريتك ولكن أشترط عليك دفع خمسين ألف دولار، أخبرني بأنه من بعد عودته من دبي، مستعد لسماع قرارك وسيصلك مستند رسمي من محاميه يفيد بذلك، تقبلين أو تظلين معلقة قرارك بيدك؟"

ارتبك كل شيء في مساحة حيرتها، كمن تُركت في هجير الشمس تفر منها الاتجاهات لا تدري ماذا تفعل الآن، وها هو قد بدأ يكشر عن أنياب شره، يعرف كيف يؤذيها من خاصرتها الرخوة ولكن..

إن كان يعتقد بأنها ستبكي طالبة الرحمة والرأفة منه مثل أي امرأةٍ أخرى، فهو واهم ويمارس أحلام يقظة ساذجة لا أكثر، تناولت الهاتف وكتبت: أ. يعقوب، قراري بالانفصال لن أتراجع عنه، مقدار المبلغ الذي يطالب به لن يلوي ذراعي، قبلت التحدي، حريتي على المحك، زمن الجواري أنتهى وسيصبح هو مجرد ذكرى منتهية الصلاحية.

بقية رسائل "الواتس آب" كلها تحوم حول تطورات فيروس كورونا، لم ترغب في قراءة شيء من كل هذا الضجيج المخيف، في رأسها الآن شكل واحد من الضجيج سوف تسعى للتخلص من كابوسه، هذا الزوج الفاشل حيث ُ لاخبز ولا ملح في قاموس مبادئه، يبتزها متصورًا وهم الانتصار.

لم يكن سهلا اجتياز هذا المساء، تنتابها الأفكار و الهواجس، كان حصارًا طويلًا و مرهقًا لكن ها هو سلطان النوم يرافقها فوق بساطها الملكي أخيرًا، ثم تهدأ كل المعارك التي خاضتها و..

ما هذا المكان الذي تتمشى فيه؟ فيلا واسعة ذات طرازٍ فاخر تحلم به أيما امرأة، حديقة كبيرة خضرة أشجارها تضج بصخب العصافير وفرحة الحياة ها هي تتألق في سعادة عينيها، بدأت ترتب بعض الزهور في إناء خزفي ثم جلست ولكن ما الذي جعل الجو ينقلب هكذا؟ عاصفة رملية هبت فجأة، تدخل الفيلا، بوسط الصالون الأنيق كان هو جالسًا، أبا محمود ابتسم لها لكن ما

بال وجهه مزرق مليء بالبثور ثم مال نحو الشمال وسقط عن الكنبة وقد فارقته الحياة!

انفلت الكابوس من نطاق رأسها كحال صرختها لم تتأخر في التشظي بين جدران البيت، صوت أمها حضرت وفي سؤالها القلق خوفٌ لا يؤجل نفسه.

-حليمة بنتي ، ماذا بك حبيبتي؟ أنتِ بخير؟!

ردت من خلف بابها بأنها مرت بكابوس وحسب، وأنه لا داعي للقلق، ثم جلست على كنبتها بهدوء، تحاول عبور الضفة الأخرى من تلك اللحظات الخانقة، داهمتها الأسئلة من جديد، لماذا هي خائفةٌ عليه؟ الرحلة معه مريرة ولا يمكن أن يكون رفيق دربٍ دمث يهديها وردة حب على طاولة لقاء تضيئه شموع بيضاء كقلبه، تغيرت وتقلبت أحواله ولم يعد كما كان، عصبي المزاج، كثير الشك، عنيف ويده طائشة والأسوأ مخمور.

كان يأخذها إلى البر، شد من عزيمتها وعلمها قيادة السيارة، تتذكر حينما انزلقت قدمها وسقطت، حملها كما طفلة بين ذراعيه وهي بساق مكسورة.

يحيطها بعنايته وحُبه حتى وصلا للمستشفى ولأجمل الأيام، تتذكر ما كان فيتواصل هجوم الذكريات تجلدها بقسوة كأنما تريد الآن انتزاعه من مسامات جلدها، ولكن كيف؟

استمراره ليس قدرًا، تخطي ما تبقى من مسافة الرحلة وإن تطلب التحليق بنصف جناح فسوف تتحدى وتعض على جراحها وتقتحم العاصفة بعناد كما شُعلةٍ تأبى الانطفاء، ها هو تنبيه رسالة جديدة، إنه هو يرسل ابتسامة منتصرة بوجه فوضوي كما صور نفسه وقد كتب: قرارك صعب، من أين لكِ المال؟ حتى وإن أردتِ الاسترزاق من جسدك، فأنتِ قبيحة ولن تجدي(..)، أنا سجانك حتى الموت حبيبتي، سأرجع من دبي وسترين ماذا سيفعل أبا محمود.

ازداد حنقها عليه ثم ردت: أحسنت بهذا الاعتراف، الآن عرفت حقيقتك أكثر ، عشرتك حرام ما دمت تتفوه بهذا الكلام على شرفك وعرضك، تعرف؟ ربي سينصرني عليك والضحكة الأخيرة لي فقط، لا أهتم بتهديداتك، ما عدتُ أخافك، ليتك تموت وأرتاح منك.

اقفلت الهاتف ثم فصلت البطارية، هذه "فوبيا الهاتف" التي تسيطر عليها، قررت أن تترك صخبها اللذيذ، لماذا لا ترتاح من هوس الهواتف الذكية التي تفسد عليها حياتها؟

ربما يومان فقط ثم تعود إلى أروقة هذا الذكاء التكنولوجي الملعون، يومان لا غير، على الأقل لن يدب الخراب في العالم أو تنشب حرب نووية!

الحمد لله على نعمة الهدوء و الاسترخاء، تركت أثرًا رائعًا في معنوياتها، تمكنت من الصمود فتركت الهاتف في قبر صمته لخمسة أيام وهذا هو مساء اليوم السادس، كانت مترددة في إعادة تشغيله، لو فعلت فمن المؤكد بأنه سيرسل من جديد رسائله السامة و المزعجة.

برغم ذلك أعادت البطارية وأيقظت الهاتف من موته المؤقت، فتدفقت تنبيهات الرسائل بشكل جنوني غير منطقي لكن ما لفت انتباهها رقم دولي يتكرر، ماذا في الأمر؟ أوه وهذا هاتف المحامي يومض على الشاشة!

-آلوو..

-أخت حليمة ماذا بك؟ خمسة أيام هاتفك مقفل!

-سامحني أ. يعقوب، حميد ممل ومزعج ورسائلة عبر "واتس آب" لا تُحتمل، كلامه فاحش ولا أدري كيف أحرر نفسي منه، من أين أقترض خمسين ألف دولار؟

-أنتِ الآن حُرة، قضيتكِ أنتهت.

-تنازل حميد عن المبلغ صح؟ هل سيطلقني الآن؟

-جاءني اتصال من دبي، أنا آسف، حميد وقع لهُ حادث سير من يومين وغدًا جثته ستصل إلى المطار، أجركِ على الله أخت حليمة!

***

بوقار بيت الأدب Bouvar

"مــن أجــل الأيــام الخوالي"

الجدال في لحظات الإحباط لا ينتج عنه شيء ذي جدوى، لكن هذا الصديق الغبي، أصر بأنه يعرف بالضبط عما يتحدث بشأنه! الحمد لله، وحده صوت الهاتف أخذه في فاصل قصير أبعده عن وجع الرأس الفارغ بلا طائل.

-آلوو، هذا أنت صحيح؟

الصوت "هو" ناعم كهبوب نسيم الصيف أعلى الجبل.

-آلوو، أنتِ هيفاء؟!

-ومن غير هيفاء التي سرقت قلبها من ثلاث سنوات وتركتها في عذاب!

-لكن هذا كان...

لمعت كما ضوء الكاميرا تلك اللحظات، لهاث أنفاسه وهو يصعد للدور السادس، فندق قديم متهالك في مقدمة أوتستراد المزة، مع صوت المفتاح يتحرك في تجويف القفل، نظرت إليه كما غزالة شاردة في عينيها خوف

بوفار بيت الأدب

مصطنع من صيادها، لكنها آثرت أن تبدأ طقوس غوايتها، كيف ينسى الخصر العاجي وهو يتلوى راقصًا في بداية الحريق؟ حريق مشروع كما صورت له مخيلته آنذاك عندما اتفق مع ذاك الرجل و هو يعرض صورتها.

هيفاء تريد تأمين دراستها في النهاية، لا تنوي تقديم جسدها مثل أي مومس لا تحترم نفسها، هذا ما قاله ذلك الرجل، حتى لا أفهمه بشكل خاطئ، سلمني تلك الورقة اليتيمة من بعد توقيعي عليها، مشددًا: "أمانة عليك، هيفاء بنت ناس، خاف الله فيها، فهمت يا ولدي"؟

رقصت و رقصت ثم أثملني هواها، احترامًا لكلمتي تركتها تغير ملابسها وتخرج من تلك الحجرة ذات الرائحة الكريهة بكامل احترامها دونما لمسها أو حتى الاصغاء لشيطاني، سوى أنني تحت تأثير قوة الحدث، أطلقت لذة ذاك البياض في فراغي المجنون من بعد أن خرجت، ارتحت وسرقني خدرٌ شهي وأخرق لم يبلغ غير المزيد من العطش و هو يهرول في الضياع!

***

بوقار بيت الأدب

ظل يراقب المصعد و هو يجلس في ردهة الاستقبال، حرص على إقفال هاتفه كي يتفادى أي لحظة من الممكن أن تتصل به زوجته أو أصدقائه، فُتح باب المصعد، ظهرت بكامل جمالها الشامي، بشرة بيضاء كما "عرق دمشق" المعتقة في سراديبها، شفتين كما جمرة الشيشة، ضوؤهما، اشتهاء مكنون في هرولة النفس الضمآنة، لم تتغير و كأنما الزمن تجمد تلك اللحظات، غير معقول!

جاءت، و مدت يدها بمصافحة ثم بها تجذبه إلى شوق صدرها، تستعجل فيما يبدُو إطفاء حريقٍ من الشوق طال به عذاب المسافة والأيام.

-هكذا حبيبي أحمد، تتجاهل كل رسائلي؟

-متأكدة أنكِ أرسلتِ لي؟

-البريد الالكتروني الذي أعطيتني إياه اتذكر ؟ تعذبت ووصلت حياتي لحافة الدمار بسببك.

-ما وعدتك بشيء هيفاء ، كانت ليلة واحدة فقط في ذاك الفندق.

-مع ذلك لم أنساك، أنهيت دراستي و خطبني زميل في الجامعة، لكنك صرت في خيالي مثل الشبح تطاردني في كل مكان!

-.....

-احببتك أحمد، و قررت ألا أتخلى عنك، انفصلت بعد عامين من الارتباط بخطبة تعسة، أنا و أنت روح واحدة لها قدر واحد، أحبك، أعبدك، الآن لا حواجز تحول بيني وبينك!

-أنا متزوج الآن.

-عذابي لا يهمك؟ سافرت من أجلك ألا تفهم؟ أحبك أحمد.

-الغريب أن قصة الحب هذه أستيقظت الآن فقط؟! ورائك حكاية أخرى، هيفاء كلميني بصراحة.

أخذ يراقب تعبيرات وجهها، بدأت ترتبك ثم بكت، قدم لها علبة المحارم، مسحت دموعها.

-أصارحك ولكن على شرط، عِدني ألا تتخلى عني.

-لا أتخلى عنك من أي ناحية يعني؟

-أمن لي هنا وظيفة حتى يكون وضعي قانوني .

-لكِ هذا وسأبذل ما في وسعي، أخبريني الحقيقة هيفاء .

-حتى أتكيف مع وضعي المعيشي، في كل مرة كنت أستقبل زبون ولكن ليس كل الرجال مثلك إلى أن وقعت في الـ ، حدث ما حدث، عرف أهلي بالموضوع، فهربت حتى لا يتم قتلي.

-يعني قصة أحبك و كل تلك التفاصيل مجرد ذريعة؟ تريدين الآن ملجأ حتى تطمئنين صح؟

-ذكاؤك وفر عليّ ما كنتُ سأقوله، أرجوك لا تتخلى عني، فأنا ... حامل!

-توقعت هذا، من أجل الأيام الخوالي هيفاء سأرتب لك الأمور لكن...

-أكيد عندك شروط؟

بوقار بيت الأدب

-هو شرط وحيد، أي ورطة تحصل لكِ لا تجعليني أدفع فاتورتها موافقة؟

-والحمل؟ أريد التخلص منه!

-في أي شهر أنتِ؟

-السادس.

-مجنونة أنتِ تزهقين روحاً، مستحيل اتركِكِ ترتكبين هذه الجريمة!

-عندك حل؟!

-هيفاء، وضعتيني في مأزق، سأتزوجكِ!

***

"كيـف يُقتـنص التــفـاح؟"

_يكتفي هو ببعض اللقيمات، ثم يهجموا بقية أخوتي على صينية الأرز؛ فتتحول سمكة الشعري إلى هيكل عظمي، بينما أختي فاطمة تبكي؛ حيث لم تأكل سوى لقمة أو أقل من ذلك، أمي تسلم أمرها لله وتكتفي بالتمر والسكوت!

_يرتاح أبي لثلاث ساعات ربما، ثم يعاود الخروج، كلما سألت أمي عن عمل أبي تخبرني بأنه يصلح مواقد الغاز في البيوت، يكد من أجلكم، فشقاء الدنيا لا يرحم.

_أنا أريد الانطلاق معه؛ كي اكتشف العاصمة، في كل مرة يزجرني، عصبي المزاج كعادته ولا يبتسم، لا أدري لماذا يرفض مرافقتي له؟

كل مرة يصرخ في وجهي: "أنت طفلٌ صغير، أذهب ألعب مع أخوانك" نفس الاجابة في كل مرة، نفس طعم الخيبة يغزو أحساسي بلا جدوى.

أراه يخرج وهو يحمل عدته، أتبعه في بعض خطواتي المسروقة بما يكفي؛ فقط كي أشاهده يصعد إلى النقل العام.

خسارة لم يأخذني معه؛ ولكني على هذا الحال لم أخسر شيء، بت أحفظ رقم الحافلة التي يصعد إليها.

_ذات صباح تمكنت من اللحاق به، أضطررت للتنكر بعباءة قديمة لأمي وأتممت خطتي، مر الوقت وها أنا أخيرًا في العاصمة، مد هائل من الخرسانة والأسمنت.

مشيت خلفه، تعبت من كثرة الأزقة التي توغل فيها أبي حتى وصل إلى بيتٍ لهُ بابٌ خشبي أخضر.

أبي لم ينادي بشيء كي يعلن مهنته كما يفعل السماك!

أكتفى بطرق الباب ثم ترقق صوته وزالت تلك الخشونة والعصبية.

_أنا أبو أحمد، هيا أسرعي وأفتحي الباب!

وما هذا الصوت المتغنج الذي بدأ يصل سمعي في غاية الدلال؟

نساء العاصمة لا يشبهن بقية النساء، فقط أمتدت يدٌ موشاة بالحناء ورائحة البخور ثم خطفت أبي، وعندما أقتربت بصمت من الباب سمعت ما دار بينهم :

_تأخرت عليّ حبيبي أبا أحمد!

-النقل العام وتعرفينه.

-المرة الجاية أركب تاكسي، يعني "حلوم" مو غالية عليك؟

-أكيد مشتاقة؟!

-أنا حبيبي أشغل الغاز وأنت "ولـع" غداك ينتظر!

سمعت ضحكات أبي تتردد ثم أبتلعهما الصمت، يا ترى ما الذي يفعله الكبار حينما يغلفون أنفسهم بالصمت والكذب؟

ثم أبي سبق وتناول غدائه في البيت، كيف سيحتمل بطنه غذاء آخر؟ دقائق والأسئلة تتناسل في رأسي؛ ولكن لن أبقى هنا كي ألفت انتباه أبي حينما يخرج، لماذا لا أستغل الفرصة وأفعلها؟

أبتعدت بضع خطوات، تكومت بالعباءة ومددتُ يدي ثم هلت البركات! تمثيل دور المتسول في العاصمة رائع ومجدي ريثما يخرج أبي من بيت المرأة المجهولة، انا حتى لا أعرف ما الذي يجعله يمكث كل هذا الوقت؟ تصليح موقد الغاز معقد لهذه الدرجة؟!

_ها أبي يستعد للخروج أخيرًا، أرى قدمه تمتد خارج الباب، ونصف جسده لا يزال بداخل البيت وهذا صوته:

_"حلومه" صدقيني أنا لا أستطيع أن أتأخر لابد أن أرد الديرة، غدًا أبشري بالخير!

شرع أبي يتفقد غيوم السماء ثم قرأ ساعته وبدأ يمشي وأنا خلفه، أين تراهُ يذهب الآن أيضًا؟

بوقار بيت الأدب

ها هو يدخل حيًا آخر، وهذه المرة يطرق باب لا لون له. مكثت بالقرب بحيث لا يتمكن من اكتشافي

_من عند الباب؟

_زنوبي، كأنكِ زعلانة على أبو أحمد، فتحي الباب، لا تتركيني أنتظر.

ثم ها هو أبي يدخل إلى بيت امرأةٍ أخرى، صوتها يبدو ناضجاً أكثر حين قالت ولم أفهم من كلامها شيء:

-لا مو مسموح لك تظل تنتظر بالخارج، أخاف عليك تمرض من البرد، تعال تدفا!

_سقف واحد يؤوينا، السعادة تفرح قلبي.

_هذا بيت مؤجر، وأنت لم تدفع، صاحب الحلال يطالبنا.

_هذه الفلوس الملعونة لا تطاوعني "زنوبي" وأنتِ زوجتي تسمعين كلمتي.

_ماذا تقصد؟

_لم أعد قادرًا على دفع إيجار هذا البيت.

_لن أذهب إلى بيتك، تريدني أترك بيتي في العاصمة حتى أذهب للقرية؟

-لكنك تحبين أبا أحمد وأكيد لا يهون عليكِ، صح يا عمري؟

_إنها المرة الأولى التي أعرف فيها بأن أبي لديه زوجة ثانية، وهذا يعني أن علاقته بالمرأتين!

نعم فهمت الآن، ليتني أتجرأ على اقتحام هذا الباب؛ لكن لا فائدة من هذا التصرف الغبي، مقتنع أبي بأني مجرد طفل، هي فرصة غريبة وضعتني في هذا الاختبار، ولا أدري إن كنت سأخبر أحدًا بما أكتشفته اليوم؟

فكرت وفكرت، ثم طويت القصة ودفنتها في قبر الصمت والكتمان حتى حين، عندما صارت أمي تشم رائحة أبي وكأنها تعرف بأنه مشبعٌ برائحة امرأة أخرى غيرها!

بوقار بيت الأدب Bouvar

دب بداخلي الخوف، وهو ما أكدته لي الأيام التالية حينما صارت أمي تتشاحن مع أبي وقد تحول هدوءها إلى عواصف من دموع وصراخ وهي حانقة في وجهه.

-عندك نسوان ثانيتين، خلاص طلقني!

أبي لم يطلق أمي كما أصر على الاحتفاظ بزوجتيه، وأنا مع مرور الأيام والأعوام صرت أفسر تفاصيل القصة.

القصة بدون أن أطيل عليكم، حضرت لبيتنا امرأتان؛ فأصبحت الزوايا تضيق بالمزيد من الأخوة والاخوات، صاروا يشاركوني في كل شيء، اللقمة صارت أقل وكذلك البهجة، والزاوية التي أحشر فيها مرتبتي القطنية الرخيصة كي أنام وأحلم بحورياتٍ، يطعمني العنب في تلك الجنان الخرافية، ولكني... لن أكرهك يا أبي؛ فأنت لا تزال تشد خيالاتي أيها الساحر، فهمت كيف تسير الحياة، وها أنت لا تتأخر عن اقتناص مباهجها، فالمرء ليس لهُ غير حياة واحدة يعيشها.

بوقار بيت الأدب

تعرف كيف تصطاد فرصتك من ثقب إبرة، وتعرف أيضًا بلا شك أيها الخبير كيف يُقتنص التفاح!.

***

بوقار
بيت الأدب

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

"أشتت ذلك الدخــان"

_هزيل، لكن طريقة ترحيبه بالزبائن ربما يكمن خلفها ذاك السر الخفي الذي يجذبهم لهذا المكان! سمرة وجهه تألفها الروح، عينين فيهما شرارة الشباب تتوقد كما منقل الفحم المعدني الذي غلفه بورق القصدير، يحمل الطلبات بسرعة يطير.

يتنقل بين طاولات القهوة، أهو كان مدخنًا قبل أن يعمل هنا؟

رد عليّ صديقي مستغربًا، أنت ما دخلك به، ما سمعت المثل الذي يقول ، "طباخ السم يذوقه!"

وأنفجرت أصواتهم تضحك بمرح.

بسرعة هكذا تفرقع رأس الشيشة ما فوقها من اشتعال، وهو بين الجلوس أو القرفصة، يعبئ دخان الشيشة كي يحضرها لهذا وذاك، يا مسكين؟ ما هذه الاسماك البالية التي ترقد فوق هيكلك العظمي! لا شحم ولا لحم! تدور بكل

نشاط بين هذه الوجوه الأنيقة، كل بضاعتك ها هنا جمر ودخان ومتلازمة محببة يضحك لها الجميع؛ لكنها لا تروقني، حين يردد "فلترها ولا تبطلها.... أنا أتي".

الشلة تريدني أن أنضم لهم في حفلة الدخان؛ لكني أكتفي بوضع ورق الكلينيكس على أنفي؛ لكي لا أستنشق قاذورات المعسل، كل من يريد تقاعد سريع لرئتيه عن العمل وقبل الأوان فاليفعل، أنا لست مهبولًا مثلهم.

لكن سالم هل أضطر إلى التدخين؛ كي يتأهل لهذه الوظيفة التعيسة؟ صاحب القهوة البدين منهمك في محادثة هاتفية مسترخية، يعد دنانيره المتناسلة راضيًا، ولا مرة رأيته يدخن؟ أما سالم المسكين ها هو ينتحي ركنًا ما ؛ فيكح بشدة والمرتادين لا تفتر طلباتهم، أني لك السلامة يا سالم وأنت هنا تنتحر ببـطء؟

بوقار بيت الأدب

أفواه كثيرة هنا تعبئ الدخان بشراهة، ضباب كثيف يحجب الرؤية والهواء فخرجت، أكاد أختنق لكني أفكر في هذا المطحون هنا، حيث توقف منذ قليل، حدقت نحو الأرض العارية حيث ترك خلفه بصاقًا مختلطًا بالـدم!

_ربما في ذروة ركض الحياة نسيت أمره، سباق مع الزمن، وقتال على أكثر من جبهة كما يقول أحد أصدقائي المثقفين وهو يصف حاله، هو ما جعلني أنسى تلك المشاعر المتعاطفة مع سالم.

_اقتربت زوجتي مني وهي تحمل كوبين من القهوة الطازجة، في عينيها كلام، هذه هي عادتها كما عرفته ..

_أريد أن أخبرك لكن تحملني!

_يعني ماذا سلوى؟ تكلمي بما تشائين.

_شقيقك محمد، تعرف أنه...

_أسلوب اللعب بالأعصاب هذا لا أحبه يا عمري، تكلمي.

_محمد صار يشارك شلة مراهقين بتدخين الشيشة، عندك خبر؟ رأيته صدفه في قهوة بالسوق أمس.

تخيلت المشهد ثانية يعود إليّ منطلقًا كما السهم يغزو مساحة الرؤية في عقلي القلق، محمد كما سالم، يمص من القصبة البلاستيكية نفس طويل، ثم تندلع من فمه ومنخريه غيوم الدخان المحمل برائحة هذا السم، ويتردد الضحك وتشتعل لحظات الفرح والنشوة!

ها يومي بدأ يعتريه الارتباك، الأمر ليس بتلك الفداحة التي يختل فيها توازني النفسي؛ ولكن مجرد وقوع أحدٍ من دائرة الأقارب في فخ التدخين، أفكاري القلقة شرعت تحاصرني، أنه أخي الأصغر الذي كنت أدللهُ بالحلوى والهدايا، وأردفه معي خلف الدراجة، نعبر حقول النخيل ذات يوم من هذا العمر الهارب، صرت أراه الآن يكح ويختلط بُصاقه بالدم، أو ربما بعد أعوامٍ قليلة أسير سرير المستشفى قد أضطرب قلبه، يحاول تفادي دفع فاتورة الدخان! الآن فقط لا أدري ماذا أفعل، حفرة عميقة تعثرت فيها؛ ولكني يجب أن أخرج،

تركت زوجتي وكوب قهوتي وخرجت وأنا أشتت ذلك الدخان السام الذي يحاصرني، لا بد من أن أتبين طريقي، لا بد من الحديث معه، أتصل به لكن هاتفه مغلق.

لا أدري لماذا فكرت في نفس القهوة التي يعمل فيها سالم، قصدتها لا أعرف من سأجد هناك، بلا شك الكثير من المدخنين الشباب، قد أجد بعض الأصدقاء أو المعارف، الواحد منهم يبدأ بالتدخين حتى قبل أن يضع في فمه لقمة! ثمة أفكارًا مشتتة تتناهب عقلي وأنا أحاول الإفلات من زحام الشارع، متى يضيء اللون الأخضر ؟ كأنني أرى أخي الصغير في بؤرة الدائرة الحمراء وفمه تندلع منهُ سحابةٌ هائلة من الدخان، ثم به ينتفض جسده بشكل متواصل ويسقط مختنقًا!

_القلق يطاردني أم ماذا؟ عن يساري هنا إعلان يحذر من مخاطر التدخين، براعة الرسام فعلت فعلها، خرطوم الشيشة تمامًا مثل الأفعى تلتف على رقبة

المدخن وهو يضحك! هذا ما أحتاجه الآن حقًا، أعصابي لا تتحمل، أشحت بوجهي عن الإعلان ثم واصلت الطريق.

يا إلهي مسار الشارع مختنق، ربما حادث مروري.

سائق دراجة نارية، يتوجع من ركبته بينما سائق السيارة المتورط يحتد في كلامه على الرجل، وصخب السيارات لا يتوقف....، بصعوبة تمكنت من تجاوز الموقف والحمد لله، أفكر في أخي الصغير.....، والاتصال الهاتفي قطع تسلسل أفكاري القلقة، صديق قديم يفاجئني في هذا التوقيت وأدري إن كنت أرغب في الحديث.

_الو.

_مدة طويلة ولم أسمع صوتك، أنت بخير كمال؟

_مرحبًا بك خليل، الحمد لله.

_أأستطيع رؤيتك اليوم؟

_أنا قلق على أخي الصغير وفكري مشتت قليلًا.

_ماذا به؟

_تصور؟ تورط مع شلة مراهقين وأصبح يدخن شيشة، جيل مستهتر!.

_لا تضخم الموضوع، ستين في المئة نسبة المدخنين في المجتمع؛ لكن يحق لك أن تقلق، الأسبوع الماضي أحد أقربائي الشباب من أعضاء نادي الشيشة، أصيب بإلتهابٍ رئوي حاد.

_يا لطيف، وماذا حدث له؟

_غير مكان سكنه؛ صار أسفل التراب!.

فجأة أنقطع الاتصال، أتضح في الحال أن هاتفي الجوال نفذت طاقة البطارية، لكن المحادثة القصيرة أستفزت أعصابي أكثر.

_سالم يعود يطرق ذاكرتي من جديد، بقع الدم التي رماها من جوفه تُنذرُ بعطبٍ ما ينتاب صحته، فقط من أجل كسب رزقه! أحيانًا كي يكسب المرء

بوقار بيت الأدب

رزقه عليه أن يقدم فاتورة أخرى مستحقة الدفع من عمره وصحته، كم هي الحياة قاسية!.

_الحمد لله ها أنا وصلت القهوة، من الجيد أنني وجدتُ مكانًا كي أركن سيارتي، القهوة هادئة وكأنها مهجورة، المكان كما هو سيء التهوية، الإضاءة قديمة ورديئة.

_توقعت رؤية سليم كأول من يستقبلني؛ لكن هناك ضحكات تنبعث من أحد الزوايا تبادر إلى ذهني أن أمنع نفسي من اكتشاف ما خلف هذه الزاوية خشية أنتهاك خصوصية أحدهم، القهوة تجلس بها فتيات بين وقتٍ وآخر، وربما أقف متطفلًا لو جربت.

_لكن لا أعرف لماذا هناك صوت آخر يداهم رأسي يزجرني؛ كي أخطو نحو هذه الزاوية، يحتلها شبحين تحوطهما غمامة خانقة من دخان الشيشة، ضحك وأحاديث لكن...، رجل محلي مع امرأة أجنبية ليس إلا، ابتسمت كمجاملة لهما ثم ابتعدت.

بوقار بيت الأدب

ما الذي يجعلني متأكد هكذا أن أخي الأصغر هنا؟ افتراض غير منطقي بالمرة، نصف هذه السوق تمتلئ بمقاهي الشيشة، علهُ في مكان آخر.

_أين ذهب سالم؟هو ذا أمامي ابتسم في وجهي، يحمل الشيشة وبيده الأخرى منقل الجمر يفرقع شراره متوهجاً.

_كنتُ متأكدًا أنك ستزور قهوتنا، لحظات وأقدم لك أحسن خلطة معسل، أقدمها للناس الغالين فقط.

-سالم، أنا أكره التدخين ومستحيل أن....

_جرب خلطتي وستشكرني أستاذ، لحظات أوصل الطلبية وأرجع لك.

_ما أسخفني لو فعلت، أجربها حقًا؛ أراها بين يديك تدخنها بشراهة كأنك تراقص خصرها الزجاجي، وتتعطر بمائها العكر والمختلط بالدخان السام، هذا مستحيل في قاموسي.

_مشيت خلفه وإذا به يجتاز باب القهوة، أخذ يعب من خرطوم الشيشة بنهم غريب، يقدمها لشاب صغير السن، برفقة أخي في دائرة فخ الدخان،

بوڤار بيت الأدب

يستمتع وهو ينفخ تلك السحب البيضاء الكريهة ويضحك، بينما سالم يكرر متلازمته المستفزة:

_"فلترها ولا تبطلها....أنا جاي"

ماذا فعلت يا سالم؟ فها أنت تفسد ثلاثة شبان دفعة واحدة، لم أعد اشفق عليك، صرت أكرهك لو تدري!.

***

بوقار
بيت الأدب

"وتـــرقـــصيـــن"

الرائحة ، إنها هي من جديد ، تصل البيت بدون إستئذان ، تُدوخ إحساسي ، تستفزني ، تهزأ من وحدتي ! ما بال هذه الجارة لا تتوقف عن حرق بخورها الخرافي المغري؟ لا أدري كيف تخلط كل هذه المكونات الغريبة ؟ الرائحة التي تجربها اليوم تأخذني إلى أسواق بغداد ، أتجول بين روائح البهارات و المسك و الكافور فتصدمني من كتفي ممشوقة الطول ، بيضاء كنور القمر ، أسقطت خمارها عمدًا ربما ، فرأيت ابتسامتها و تبعتها مسحورًا بها ثم دخلت زحام السوق وشرعت أبحث بلا جدوى !

ماذا تفعل بي هذه الجارة ؟! الفاصل بيننا جدارين فقط ، عندما أحتاج بعض الأغراض أشتريها من الدكان ، أكثر من مرة ألتقينا ، أغض بصري عنها كي لا تنزعج مني ومع ذلك أريد أن أتحدث إليها ، بي رغبة شديدة لذلك .

سأسألها عن روائح البخور الغريبة و الرائعة التي تجربها كل يوم ، ماذا لو كنت طماعًا أكثر وطلبت منها رقم هاتفها ؟ أكيد عندها " واتس آب " وقتها أستطيع التحدث معها في أي وقت يشاء قلبي الظمآن . زمان الرسائل الورقية ولى ، لا داعي لأن يفضح المرء نفسه ويعلن بأنه مهتم بجارته الهادئة ذات الابتسامة الساحرة .

نعم لها ابتسامة ساحرة ، ذات يوم وأنا أستعد لدخول الدكان ، واضح أنها أحتاجت إلى تعبئة رصيد هاتفها على الأرجح ، كانت تحمل كارت شركة الاتصالات وهي تتحدث في هاتفها مع صديقة وهي تضحك . كنت يومها قد تبادلت بعض الانفعال العابر مع أخي بسبب سوء تفاهم ، لكني وقتها نسيت ما حصل ، ضحكتها كانت نسائم من فصل الربيع تلطف قيض يومي التعس .

آه، يا لها من رائحة ، تأتي من هنا عبر " المنور " بيتها صغير مقارنة ببيتنا ولكن هذه الفتحة التي تلاصق الجدار هي سر عذابي مع فيض الرائحة المغرية التي لا يتوقف ،

بوقار بيت الأدب

فهي تحرق البخور في طقسٍ يومي متواصل وأنا أستمر في " دوخة " الضائع من نفسي لا يرسوا لي حلمٌ على بر الأمان تتخطفني غزلان المها في صحراء عطشي . رأيتها ذات مرة أعطت صاحب الدكان مغلفات من أكياس النايلون وبداخلها ما كان يبدُ

من حبات البخور السحرية .

ماذا لو أستعنت بالسلم حتى أعرف ماذا يدور خلف فتحة " المنور " ؟! هذا جنون؛ ولا يتفق مع حقوق الجيران و... لكن لا أدري ماذا سأفعل مع هذا الفيض من الأفكار و التخيلات والأحلام التي يستثيرها في داخلي هذا البخور ، يقذف بي في سماوات زرقاء تشهد احتفالات الغواني وأنت يا جارتي بينهن كالنجمة تضحكين بسعادةٍ غامرة وفي يدك كأس نبيذك و ترقصين !

يا إلهي ، الرائحة ستدفعني لارتكاب حماقة ما ، أدخل إلى حجرتي ولكن بلا فائدة ، الرائحة تطاردني ببساطة ، أحاول تسلية نفسي بهاتفي لكن أجد الأمر مملاً ، يشرد إنتباهي لهذه الجارة الغامضة من جديد ، أتخيلها تتلوا بعض

بوقار بيت الأدب

الطلاسم بلغةٍ أجنبية بينما تقوم بخلط البخور ، ما يعطيه بلا شك هذا التفرد العجيب .

اللعنة إن هذه الرائحة لا تتوقف عن غزو أنفي وعقلي ، لم أستطع فعل شيء ناجح ، لا القراءة و لا الهاتف ولا حتى مجرد بعثرة ملابسي من الخزانة وإعادة ترتيبها ، الرائحة تصلني ، وقتها ليس أمامي غير مغادرة البيت فهذا أفضل حل كي أهرب من فخ بخور جارتي .

ساعة و نصف خارج البيت قضيتها كيفما كان ثم عُدت ، الحمد لله عادت لبيتنا رائحته المعتادة ، فوجئت بأختي سلوى تسألني .. (أكيد جوعان ، أمي حضرت سمك صافي مقلي بالزبدة).

كنتُ سأخبرها عن ما يدور فى رأسي ، وأنني بالأساس أفكر فى شيء آخر ولكن تراجعت مفضلاً الصمت ، الكلام معها ربما لا يفيد في شيء ، علها تذهب لأمي ثم تخبرها ، عندئذ سأجد نفسي مضطرًا لأن أبرر أو اتورط في أشياء سخيفة .

بوقار بيت الأدب

أمي لن تتركني من أسئلتها ، رأيت جارتنا ؟ هل أعجبتك ؟ أخطبها لك يا نور عيني ؟ أنا لا زلت فى المرحلة الأولى من هذه القصة لم أحل اللغز بعد ، فقط عليّ معرفة سِر الرائحة قبل أي شيء آخر ، يخبرني احساسي أنها هي التي تصنع هذا البخور العجيب فصارت تشغل تفكيري بالرؤى و الهذيانات لا أدري كيف ؟!

فيض الرائحة الزكية أصبح معزوفة موسيقية جميلة في بيتنا ، بعض النساء اللائي يزرن أمي يتساءلن عن رائحة البخور في ظنهن أن أمي تحضره و تبيعه حتى قررت ذات يوم أن أسألها ..

كان الوقت عصراً حينما جلست معها في فناء البيت ..

-أمي ، اليوم رائحة البخور مختلفة صح ؟

-ياولدي ، كل يوم ريحة غير ، جارتنا الله يحفظها شاطرة .

-أنا رأيتها تتفق مع صاحب الدكان فى الحي حتى يبيع البخور الذي تصنعه.

- أنت غلطان .

-كيف يعني ؟!

-أنت رأيت " سلوى " الطويلة يمكن ؟

-نعم هي طويلة ، أتذكر .

-يا ولدي هذه " سلوى " والتي تصنع البخور أمها " صفية " جارتنا ألا تعرفها؟

سكت قليلاً حتى أتضاهر بأني لستُ متفاجئاً ، لكن احساسي يهرول في غربته من الوقوع في رقصة الوجع القادم الذى كنت أرى نُذره تلوح في الأفق فسألتها من جديد ..

-أمي ، سلوى أنا أعجبت بها والسبب هذا البخور العجيب ، تخطبينها لي؟!

-لا ترفع صوتك حتى لا يسمعنا الجيران ، ألا تدري أن جارتنا أول أمس خطبها واحد من العاصمة ؟!

بوقار بيت الأدب

"زينب"

أخبئ لها فى جيب بنطلوني السكاكر الملونة ، أركض وأركض بعيداً عن حينا ، خطواتي الصغيرة يذهب تعبها حين تفتح لي باب بيتهم الخشبي الكبير وأعرض عليها ما عندي ، يمتلئ فمها بالألوان والضحك ، أقضي معها النهار في اللعب ، في كل مرة تغلبني ، لأني لا أعرف هذه اللعبة جيداً "الصبة" هكذا يسميها الكبار ولكني أسميها لعبة زينب .

لم أسألها لمَ هي أطول مني ؟ لكن النهار معها قصير حيثُ أترك أصحابي من الذكور ، كثيراً ما ينعتوني ساخرين "أبو البنات" فأدخل معهم في شجارات لا تنتهي .. ذات مرة رميت أحدهم بحصاة شججت رأسه وهربت !

يستحق فقد نعت زينب بالحولاء ومد لسانه وهو يتمايل هزلاً وتحدياً . زينب أحلى البنات وأكثرهم طيبة ، ذاك الأهبل لا يفهم .

خلاص .. انتبهتُ من غفلتي على صوتها . السكاكر ذابت في فمها ،شاكستني بجديلتها السوداء تزينها الشرائط الوردية ثم .. قبلتني !

اتقد خداها خجلاً ملائكياً .. على ماذا تشكرني زينب ؟ السكاكر لم اشتريها من مصروفي ولا هي من جدتي ، انتقيتها فقط من كيس "ليلة الناصفة" عندما تجولت فى بيوتات القرية وتسابقت مع الأطفال وكنزي ينتفخ ويزداد ثقلاً من باب إلى آخر .

أنا .. أنا تقبلني زينب ! منذ الآن هذا هو سري ، لملمته فى حياء وجهي ، وركضت هارباً . هارباً إليها كل يوم نمارس ألعابنا البريئة .

وذات يوم .. قررت كسر حصالتي الخزفية . كسرتها مستشعراً في نفسي خسارتها ، لكن زينب تستحق كل مائة فلس بداخل جدارها الخزفي المستدير ويا لدهشتي بعد عد القطع المعدنية .. ثلاثة دنانير!

ثلاثة دنانير دسستها بحرص في جيب بنطلوني الحليبي . أمي منشغلة بأعباء البيت ، تسللت حتى أصبحت حراً ، ثلاثة عشر سنه من عمري تجعلني جريئاً بما يكفي للقيام بالرحلة ، أنا رجل كبير !

بوقار بيت الأدب

وها أنا أتشارك الانتظار مع الناس عند محطة النقل العام ولا أحد يسألني أو يتطفل عليّ .. هنا امرأة متوارية فى سواد عباءتها المغبرة ، تحمل طفلها الرضيع يضج ببكائه ورجل أشعث الشعر تفوح منه رائحة غريبة ، يدخن ويواصل البحث والتفتيش فى الشارع ، تقفز عينيه الجائعتين إلى النساء والفتيات ، أما أنا فيقفز خيالي إلى ضحكتها ، فيها شيء يشد روحي لا أعرف كنهه ، شيء يستعصي على تفسيري ، هكذا يربكني ولا أجرؤ على البوح به إلى أحد .

لم يتسنى لي الوقت أكثر وخيالها يشاكس أفكاري حتى أقبلت الحافلة ويا لخيبتي ، مكتظة عن آخرها ، أنا فقط في آخر الصف ، أغلق السائق بوجهي الباب وكأنه طردني من حلم النهار الجميل ثم توارت الحافلة بعيداً ، هنا تتركني فى حيرة السؤال .. لماذا أنا بالذات أقفل هذا السائق ذي الأنف المفلطح الباب بوجهي ؟!

ما كدت بعد ألملم خيبتي وأنسحب من المحطة حتى باغتتني الضربة ، تلوث قميصي برائحتها العفنة ، حيث سال عصيرها الفاسد وتحولت لأجزاء صغيرة عند حدود المفاجئة والاستفزاز ، ليتبين لي أنها نيران صديقة !

إنه هو .. الذي نعت "زينب" بالحولاء ، يرسل انتقامه الجبان ببرتقالة متعفنة من قمامة السوق . هذا ما ينقصني الآن ، هذا الأهبل لا يكتفي بمقالبه السخيفة في المدرسة فقط ، بل يستمر في استهدافي ، أيظن أنه سيفلت من انتقامي وغليان غضبي ؟

فانطلقت صوبه وقد تزعزعت نظراته المرتبكة وفر من أمامي تاركاً نعاله.

أطارد غباره في الأزقة ، أركض وأركض وفى يدي بقايا البرتقالة ، حتى إذا ما ظفرت به أمسحها بوجهه الأحمق ، لكني لا أجاريه في سرعته وكأنه بأربعة أرجل !

تاه مني وفقدته في الأزقة ، توارى شبحه ولا أثر له ، أسندت تعبي إلى الظل وأنا ألهث ، يأكل مني الحر والعرق .

بوقار بيت الأدب

بعد الراحة ، خطيت أسمها على صفحة التراب ، لم أرتب هذا الأمر ، خطيت الاسم بعفوية روحي ، ملائكية البياض تحلق في فضاءاتها ، متذكراً لحظات السعادة ، هكذا شيئاً ملوناً مثل السكاكر التي خبأتها لها ، هكذا مثل ضحكاتها وهي تشاكس وجهي بجديلتيها ، فضحتني الضرطة فأطلقتها على غير ما أردت وهي تغرق فى ضحكها الجميل .

ثم ها هي تُولد من الرمل تخرج من حروف اسمها الأربعة ، كانت قد مرت أمامي وهي تتبع أمها ، على ما يبدو تحمل بعض الملابس المتسخة في علبة كارتونية ، فى طريقها إلى العين ، حيث تتجمع نسوة القرية لغسيل ملابسهن وتحميم أطفالهن .

تلك العباءة الرثة ، أطول منها ، ربما هي لطفلة أو لإحدى الجارات اللائي استغنين عنها ، فأُعِطيت لزينب لتلبسها ، كانت تخب على وجه التراب فتثير الغبار ، تخترقه أشعة شمس الصباح ، تلوح بكفها الصغيرة وتضحك وهي خلف أمها .

أبادلها الضحكة قبل أن تغيب في انعطافة الغبار وذيل عباءتها يختفي ، فأنهض من مكاني ، آثرت الاستمرار فى الفكرة التي خرجت من اجلها هذا الصباح ، نعم أشعر الآن بالحماس يحملني إلى محطة النقل العام ، لا بأس من انتظار حافلة الخط الثاني وسأنطلق إلى "المنامة" .

إلى هناك ، إلى سيل البنايات المرتفعة والوجوه الأجنبية الكثيرة وبضائع متنوعة أراها لأول مرة ، ها أنا في "المنامة" المكان الذي طالما طالبت أبي باصطحابي إليه ، مرات كثيرة وأبي يعدني ولكن في كل مرة يخلف وعده .

أخذت أتجول فى الشوارع العامرة بالبضائع القادمة من وراء البحار ، أتذكر معلم الجغرافيا عندما تحدث عن الأنشطة التجارية التي تتعامل بها البلاد ، ها أنذا أكتشف أشياء كثيرة عن بلادي. فماذا أشتري لزينب ؟

تتنوع المحلات أمامى فتزداد حيرتي إلى أن وصلت محلاً مختلفاً . الواجهة الزجاجية للمحل تعرض مصوغات ذهبية رخيصة ، بالطبع ليست أصلية ولكن أشكالها جميلة حيث

بوقار بيت الأدب

كان الهندي يعرضها عليَّ . وهكذا اشتريت ما أعجبني بنصف المبلغ الذى بحوزتي ، زينب تستحق هذه القلادة والقرطين على شكل الفراشة ، كم ستفرحين يا زينب .

هرولت في هذه الشوارع ، أعرف موقع المحطة الرئيسية للحافلات عند مبني البلدية حيث يرفرف العلم فوق الصارية ، نفس الصورة المطبوعة في كتاب الجغرافيا ، سؤال هنا وهناك فوصلت .

انتظرت الحافلة حتى ظهرت ، حشود كثيرة من الخلق تصعد وتنزل ولم أعرف كيف أخترق بقامتي القصيرة هذه الحشود حتى أبلغ الباب ، حاولت حتى نجحت ولكن تكدست الناس جلوساً ووقوفاً ، لم يكترث بي أحد ، المهم أنني كنت أتعجل الوصول إلى القرية وها قد وصلت مع أذان الظهر . هرولت إلى باب بيتها ، أشتاق لرؤيتها حاملاً الهدية الملفوفة في الكيس الورقي الملون وهذا آخر جدار أمامي أنعطف خلفه فينكشف بيت زينب ، فقط لو أطير في الهواء مثل "سو برمان" .

بوقار بيت الأدب

ولكني وجدت المشهد شيئاً آخر ، قلبي يكاد يطير خوفاً من صدري . ما بال هذا التجمع المشئوم من عباءات النسوة تحاصر بسوادها بيت زينب ، بكاء وهمهمات ومزيد من النسوة تتجمع ، أتذكر شيئاً يشبه هذا التجمع ، يوم ماتت جدتي على فراشها ولم تستيقظ كعادتها

قبلنا لتحثنا على أداء صلاة الصبح ، لحظات حتى تكاثرت النسوة من الجارات والأقارب على باب بيتنا . امرأة عمي حجبت عني قسوة المشهد وأعطتني شيء يؤكل وحملتني إلى بيت آخر .

من يبعدني الآن عن كل هذا الصخب الخائف ؟

الآن يضربني نفس الشعور ، أهجس مكروهاً وقع فى هذا البيت ولا أعرف القصة .. زينب هل أصابها مكروه ؟ القصة كما ترويها إحدى الجارات لأختها ، أن أم زينب وقعت مغشياً عليها في البيت وأخذ جسدها ينتفض وخرج الزبد من فمها وفاضت الروح إلى خالقها .

بوقار بيت الأدب

فتحة صغيرة من جدار العباءات وقلبي يدق بشدة رأيت زينب متعلقة بجسد أمها المسجى في فناء البيت ، تحجبه بطانية رثة ، تبكي وتبكي مبعثرة الشعر والمشاعر .

إنها المرة الأولى التي أرى فيها زينب على هذا الحال ، أشعر بالعجز ثم أقرفص عند الباب وأستسلم لكل هذا ، يسقط مني الكيس ، يسقط فرحي وأتورط مع الوجوه المحتشدة أبكي لبكاء زينب.

***

"حـُــفـرة"

سيحملون نعشي ويبدون دموعهم الكاذبة مثل انفجارات أحزانهم، زيف وجوهٍ آثمة تلملم عُريها المفضوح الذي لا يعرفهُ أحدٌ سواي وربي. أريد مفارقة مدينتكم وستكون محطتي الأخيرة في أقاصي وجعي المزمن، ميراث القهر الذي يعصر روحي، لتكن نهايتي محرقة، حفرة، حسرة أتجرع كؤوس مرارتها وليتني أرتاح!

نعم أريدها الآن، لتكن حفرة، هذا معولي ينتظر فوق كتفيّ المتهاويين، أضواء الشارع تتسرب إلى أرض المقبرة تنتظر هي الأخرى لقمة الجسد وكأني أرى "عزرائيل " محملًا بألواح الموتى المنتظرين أقدارهم وهو هنا يقف بين السماء والأرض يمارس هوايته في عد شواهد القبور، يتأكد من جرد حسابات الآخرة، القبور أمامه مثل ثآليل في ظلام غير مكتمل. صرت أمشي هنا وأتخير موضع قبري!

بوفار بيت الأدب

أضحك وأضحك كي أهرب "مني" فهنا حفيرتي، هنا حتفي الآتي وسأهرب من مدينتكم، من برودكم الثلجي، مثلي لا يريد البقاء كي لا يتعذب من نكرانكم، سأفر منكم قبل أن يتصحر هذا القلب ويغدو قاسيًا لا تبث فيه نداوة المطر رحمة الأطمئنان.

هو موتي، هو جسدي سأدفع به مثل عربةٍ متهالكةٍ لا يحتاجها أحد. هي ذي لحظة الفرج ومغادرة نفق حزني، معولي يغوص في نعومة التراب الهش، سأمضي إلى نهايات الخيبة بلا إياب. ألا يكفيني فساد ما حولي؟ ما عُدت أحتمل الغرفة فاسدة الهواء، تعمدوا إبقاء نافذتها مغلقة، صرتُ مسجونًا بين جدرانها الأربعة، تحاصرني مجاملاتهم الكاذبة بالشفاء الموعود.

أكاذيب رخيصة تتلون كما أصناف الأدوية التي تؤجل موتي الزاحف .. آهٍ من أكاذيبهم المراوغة التي تواطؤوا عليها، إلهي لا تتركني في حومة العذاب أسقط من ...

شاهق ألمي، وهذه أنفاسي طوع قدرتك، وأنا لستُ سوى عُنق عصفورٍ، هيا شدد قبضتك القدرية حول هشاشته، أستل روحه المعذبة كي يرتاح!

فقط لو أرتاح، لكل واحدٍ منهم قلبٌ من إسمنت، ما عُدت أطيق رؤيتهم، الأحسن أن أحفر وأحفر، سأنبش وجه هذا التراب برؤوس أصابعي التي حملت أحلامهم الصغيرة ذات عمرٍ مضى. ماذا أكون عندهم؟ أنا نفاية يزدردها فم الحياة. أحفر بحماس، تعب وعرق وهذه أنفاسي تلهث، قريبًا سأسمع للحفرة صوتًا ما يرحب بي منطلقًا من أحشائها يسحبني من خرابي.

لا معنى لهذه الدنيا الفانية التي نلهث على رخامها، أريد مفارقة دنياكم، زهدتُ مدينتكم الإسمنتية المختنقة بدخان الحضارة والعولمة، ما عادت لي رغبة العيش حيث أبتلع سموم الأدوية بلا طائل، كما أشاهد وجوهكم لا يتحرك فيها شعورٌ بالصدق والرحمة، أربعة وجوهٍ صارت رديفة لرائحة إبليس، حولها لأربعة نصالٍ في صدري!

أما كُنت ذات يوم أفاخر بغبائي على جاري أبا زينب، أشفقت على حاله، ففي رقبته تسع بنات. أخبرته بأن "الولد" كنز أبيه وحامل لواء العهد من بعده وقت الشدة، فهو الذخر والسند، أربعة أولاد سيشتد عودهم ويعتنون بي. ما كنت أدري بقدري، سيرد لي تلك الصفعة ولو بعد حين، اكتفى الرجل يومئذ بجملة هادئة لم تبرح ذاكرتي .. "يا جاري، إن كنت تشفق على حالي، فأنا لستُ بمسكين وأشكر ربي على نعمه، وإن كنت تسخر مني فربي موجود".

يا حفرة الموت ترفقي برغبتي وساعديني، الرغبة الأخيرة وحسب لعجوزٍ هالك آن وقت رحيله .. فقط أريد أن أرتاح. المعول يتباطأ في يدي وكأنه عبء لا أطيق حمله، الصبح ربما يتهيأ كي تبدأ رحلة تجدد الحياة، فإن كانت في دمائهم قطرةُ حياء فسوف يبحثون عني.

لا أريدُ منهم شيئًا، سيشملهم العار وها أنا اللحظة نقي من خطاياهم كما ولدتني أمي، لستُ أطمع في شفقتهم التي تلوث صفاء قلبي. إن الله تعالى يغنيني

عنهم، الظلام آخذٌ في الانحسار، لو يتوقف رجفان قلبي القلق و أهوي في حفرتي هنا ثم أرتاح!

سأنجز ما بدأته، أنا آتٍ وها عرقي يتصبب، لتهديني حتفي يا إلهي رحمةً منك، لن أستسلم للتعب وسأحفرها كي أبلغ مرادي ثم أرمي خلف ظهري شهوة الأشياء. بي رغبة متوقدة وشديدة للهرب من كل هذا، قد يبحثون عني الآن! لا أريدهم ولا يفرحن قلبي بهم عندما يحاصروني في شباك نفاقهم الكاذب، أيحسبوني عجوزًا خرفًا؟! عندما كثرت الاشارات التي يتبادلونها خفت نواياهم، ليلتها قررت الاحتيال على عادل الذي يعطيني أدويتي وفعلت، مثلتُ دوري حيثُ أقتنعوا به.

جعفر كان يسأل .. (عادل أنت متأكد أن والدك نام؟!) . كنت أدس الحبوب التي يعطينيها أسفل وسادتي بينما أشتت انتباهه نحو ساعة المنبه إن كانت متوقفة أم لا؟ آخذ تلك الحبوب ولا أعرف، وها هو الآن يتكلم .. (مع

الدواء حبوب منومة، والدك الآن في سابع نومة، والله لو ينام ولا يستيقظ أحسن له! الطبيب يقول إن حالته متأخرة ولا أمل في شفائه)!

حسين بعد صمته فجر قنبلة زلزلت كياني .. (ولا واحد منكم يفهم الانجليزية، أنا تكلمت مع الطبيب أول أمس، جسم والدنا أنتشر فيه ال.. الخبيث، لنتركه لمصيره، لا نستطيع أن نفعل شيئًا، ثم إنني أرفض فكرة العلاج في الخارج).

وأنت يا خليل ما وراء حيرتك؟ إخوتك ينتظرون مثلي قرارك يا كبيرهم الذي علمهم الجحود فما أمضى طعنتك القاتلة التي باغتتني بلا رحمة ..

(العلاج في الخارج يا حسين يعني أموالًا وتكلفة، لي صديق أقترض لأجل علاج والدته مبلغًا فلكيًا، انتكست حالتها وماتت وهو تورط في قرض علاجها بلا فائدة)!

ما أكبرها عند الله، هكذا بسهولة أصير كمثل سقط المتاع، لا أجد من يكترث بي أو يحن قلبه عليّ، عليكم اللعـ... لستُ أصدق ما أراهُ منكم؟! حقًا

أنتم شياطين تلبس أقنعة البشر، أما أفنيت عمري وسلخت لكم من جلدي وتحملت البرد والحر وجور الدنيا كي تنعموا بلقمة طيبة وملابس نظيفة فيكون هذا جزائي منكم؟!

ربما بالغت في مساحة ظني المتوهم، حفرة تافهة كهذه لا تتسع لي كي أهرب من هذه الدنيا و.. "الله أكبر ، الله أكبر" ما ألطفك يا إلهي، هذا أذان صلاة الصبح، نزل بردًا وسلامًا على روحي، تحررتُ من قضبان قلقي ثم نفضتُ عن نفسي وساوس إبليس الرجيم وها هي ارتعاشات هواجسي تبرد في ندى الفجر ونداء الصلاة يغسل ليلة البارحة مما علق بها من وجع.

بردت تلك الرياح الساخنة التي أجتاحت أفكاري، ستار الضباب الذي سيطر عليّ ها هو ينجلي عني، حدقت في يدي وبهذا المعول وبدأتُ أجتاز مساحة وجعي بينما أذان صلاة الصبح ينير بصيرتي، ردمت الحفرة ثم رددتها إلى جسد المقبرة مستغفرًا ربي، الآن أنا أعرف تماماً ماذا أفعل.

***

"ذات صـــبـاح"

ستارة نصف مفتوحة، شعاع الشمس يتسلل مخترقًا لوح الزجاج البارد فيستيقظ نوم الأشياء الساكنة بالنسبة إليكِ. مزهرية تحتضن وردة على وشك الذبول، يغسلها الشعاع وهو يمر في طريقه على إطار بلاستيكي مُذهب الزوايا، يكتنز بين أضلعه الأربعة، زوجاً حنوناً مع ثلاثة أولاد، وأنتِ هنا وسط الصورة يحتويكِ مقعد أنيق وفي حضنكِ طفلة بريئة الحلم تصفق.

هذا الضوء غير مرغوب في لحظات تسلله الآن، لابد من النهوض . ربما هي السادسة ولكن ساعة المنبه متوقفة. تركتِ وسادتك، لا مناص من إغلاق الستارة، هذا الشعاع يعاند ظلمة الحجرة في يوم إجازة. تتذكرين بأنكِ طلبتِ منه شراء ستارة بجهاز تحكم عن بُعد .. رفض الفكرة من الأساس على اعتبار أنها رفاهية استهلاكية تبرر المزيد من الكسل.

أوف، ترك دفء الفراش من أجل إغلاق الستارة أمر مزعج، صحيح أن نور الشمس في هذا اليوم البارد من يناير يبعث الدفء في الروح ولكن .. ها أنتِ تزيحين قماش الستارة، تتثائبين فتصطادك مرآة التسريحة على غفلة منكِ! وقوفكِ عندها هذه اللحظة ليس ككل مرة واثقة الابتسامة حيث ترسمين شفتيكِ بعناية أو تضعين بودرة أساس على خديكِ ثم تتركين ظلال الأسود الدخاني على جفنيكِ كي ما تكتسين ببعض الغموض.

هي لحظة متفردة من ارتياب النفس حين تؤخذ على حين غرة، مفاجأة لا قِبل لكِ بها تنهش من طمأنينة صباحكِ وأنتِ واقفة. بدأت أصابعكِ تتحس قلق وجهٍ لا تعرفينه، وجه امرأةٍ أخرى ربما لكنه ليس وجهكِ! ذابل، ببعض الخطوط الدقيقة أسفل العينين وعلى طرفيّ شفتيكِ. كيف تتحاشين وقاحة السؤال وهي تسخر منكِ؟ مرآة لا تعرف المجاملة تخبركِ عن ذبول الأربعين يزحف بصمت!

هذا السطح الفضي لا يعرف الكذب، لكن مستحضرات الزينة هي المخادعة بترويجها الإعلاني المراوغ يترافق، وابتسامات فتيات مكتنزات بالصحة والجمال والفتنة عبر كل القنوات الفضائية.

هذا القلق يطل من نسيان الزمن، هل هذا وجهكِ حقاً؟ وجه مكدود عليه آثار تعب الأعوام الماضية، كم يشبه وجه تلك العاملة (الآسيوية) التي تقوم بغسل سلم العمارة من الدور السادس نزولًا إلى الأرض، مسكينة وصامتة وكئيبة.

تختلط أحاسيسك الآن، أحزان الأيام الماضية ها بدأت تنجلي عنها غلالة الغموض وتستيقظ واضحة المعالم، أنتِ تكبرين في السن ولا مناص من الاعتراف بهذا، كيف يتوه عنك التفسير؟ هو أمر بديهي في نهاية الأمر، كلنا ندفع فواتير هذا العمر بمختلف مراحله. تنظرين لشهادة التخرج المصلوبة على الجدار، الأرقام تذكركِ بما مضى من العمر، هذا دليل دامغ، الهروب لا يجدي!

أشحتِ بوجهكِ عن الشهادة، حدقتِ في المرآة ثانية، الخطوط الدقيقة عندها الكثير لتقوله وهي تتوزع على سطح وجهك ولن تهربي من صراحتها الزمنية. أنتِ زوجة تحترف أمومة ثلاثة أطفال في جنةٍ صغيرة هي هذه الشقة المتواضعة الدافئة بحب رجلٍ، ألا تزالين تعتقدين بأنه لم يلاحظ هذه الخطوط؟ هل حقًا قلبهُ يرقص في بستان حبكِ كما الأيام الخوالي؟

تعاودين تفقد وجهكِ المسكين، يغطيك دخان الأعوام التي أحترقت فكيف لا يكون الرماد وجبة الريح التي لا تهادن؟! هذه تلاوين الخيبة تغزو الروح ما أصعبها هذه اللحظات. مشحونة بالضيق نفسكِ، تشعرين بالهزيمة، ربما ستحطمين المرآة، أتفعلين هذا؟ كل هذه الأسئلة الغبية والأفكار المشاكسة التي تغزوكِ سوف تتلاشى بعد حين، ربما هي مجرد هلوسات لعينة منشؤها تغيرات هرمونية مضطربة.

حمام الصباح كفيلٌ بالتخلص من كل هذه الشحنات السلبية، خربشات تافهة وسوف تتسرب من تلقاء نفسها. تدخلين الحمام، تعمل يديك في تعرية هذا الجسد.

برذاذ المرش، روحكِ يتجدد صحوها ثم تنتعش لحظات لكن .. تصطادكِ على غفلة منكِ مرآة الحمام وكأنما تواطأت مع اختها كي تستمر عذابات الأسئلة ووجع الذات. هل ترين جسدكِ كيف أصبح؟ أين ذهبت تلك الرشاقة الرياضية؟

مرآة بشعة، لم يأخذ رأيك بشأنها، تكرهينها. ليته لم يشتريها أصلًا، كيف تجرؤ على التطفل وتقتحم خصوصيتك بهذا الشكل الفظ. تسديك سخريتها المرة غير مكترثة بكِ؟ تزيدين من زخم الماء كي يندفع أكثر، لتبتعد أيها القلق الآن .. هو ذا صدرك تتجمع فوقه قطرات الماء المنهمر ورغوة الصابون تزيد شعورك بالأمان ثم هذه الراحة التي تختلط مع رائحة العطر الفرنسي، احساس جميل، هذا الرجل يعرف كيف تكون حبيبة قلبه في مواسم فرحها.

بوقار بيت الأدب

صدرك يمتلىء برغوة الصابون، هو أسير يديكِ فيه شيءٌ من بقايا جنون الأمس.

يحبك وتعرفين هذا، لا تزالين خيرات جنته أنى أشتهى ثمرها يقطف ويأكل لكنه على الدوام صامت، الصمت مدعاة قلق وأسئلة تفرغ بعضها في عتمة الطريق، يا للأيام الماضية كم أساءت إلى نفسك وتمادت في قسوتها. تبحثين عن اهتمامه، شارد الذهن ما عساه يفكر؟ الأسبوع الفائت فقط دخل الشقة وفي يده مجلة ممتلئة بغوايات الجميلات، في العادة هو لا يقرأ ولكنه ظل يتصفح تلك المجلة وأنتِ تحترقين في أتون غيرتك. كم سيكون من الغباء سحب المجلة من يده وتمزيقها كما تفعل الصديقات المراهقات عند المقارنة أيهما أجمل وهُن يتصفحن مجلات الأزياء.

هذا الفعل لا تلجأ له غير من تتزعزع ثقتها بنفسها، هي تعرفه طوال الأعوام الماضية وتعرف أن.. ما بال أنثى غلاف الصابون ذات النظرة المغرورة قد انتصبت واقفة خلفها هكذا فجأة؟! الغلاف قمتِ بتمزيقه ليلة البارحة فكيف

جاءت هذه الجنية هنا ثانية حتى تتمختر بجمالها أمامك بكل وقاحتها و تضحك؟!

وجهها عارٍ من الحياء تحدق في المرآة، تلاعب شعرها، شريرة تتحداك فلا تضاهين جمالها أو نضارة بشرتها كما بياض السكر، تستعرض قوامها الرشيق وترقص فتشعل غضبك أكثر!

تحاولين الوصول إليها لكن طيفها كما الماء لا تقبضين منه شيئًا وها ضحكها يستمر في استفزازكِ. تهزين المرآة، من منهما صار يغضبك أكثر، هي أم المرآة؟

أم خيبة الحزن يرتسم في كآبة هذا الوجه، هو ليس وجهكِ كما جمدهُ ضوء الكاميرا في الصور.

أنتِ تهزين المرآة بعنف مهزومة الروح، زوجك الآن يفكر في امرأة أخرى مثل أي رجل ولا عزاء لك لو اتخذ زوجة ثانية يتوجها أميرة على مملكته. تهزين، تهزين وهي تضحك بغرور ترقص على جراحك ثم..

بوقار بيت الأدب

تحركت من مكانها ثم سقطت أرضًا، فرت صيحات فزعك، أخيرًا تلاشى شبحها من أمامك وهذه صيحاته مفزوعة يطرق باب الحمام، طرقات متعجلة، متوترة .. (هناء حبيبتي هل أنتِ بخير؟ هناء أجيبيني).

الآن ها هو باب الحمام مفتوح كما جروحكِ تنتظر اسعافات عطفه، يحتويكِ بذراعيه وعلى وجهه يختلط الخوف مستفسرًا .. (أنتِ بخير حبيبتي؟) فتشرق من وجهك ابتسامة وما أجمل اللحظات فتحدقين للمرآة وقد تحولت لشظايا نجمية، تسألينه: (لم أسمع هذه الكلمة من مدة طويلة!).

اعتصرك أكثر إلى صدره .. (تعرفين يا هناء، شكلك رائع وأنتِ مبللة تثيرين جنوني، كأنك فراشة تحت المطر) . (وأنا ما أزال حبك الأول؟) ضحك في وجهكِ وما أروع مرافيء العودة إلى جنته ها هي كما كانت وأنتِ ظافرة بقلبه كأول مرة، كأول لقاء، كأول موعد بينكما، تحبينه أكثر وتذوبين في البعيد ثم تسرقك إغفاءةٌ خضراء من هدوء وأمان.

بوقار بيت الأدب

" مـــنـــاوبـــة لـــيـــلـيـــــة "

لا أعرفه، لا أدري تماماً متى أحتل المكان؟، لا أرتاح إليه من هيئته فهو .. كيف أصفه؟ نصف أصلع، شامة أسفل ذقنه الحليقة، أذنين مزروعتين بشعر كثيف مقزز، نبت مثل حشائش ضارة أهملت طويلًا ولم يجد المقص لها طريقًا، صوته مبحوح وكأنك تسحق رقبة قط صغير فتسمع حشرجاته المحتضرة بين كفيك.

متطلب جدًا ولا يعجبه شيء من أكل المستشفى، أسمع جداله مع الممرضة الأجنبية، كانت تحاول إقناعه بتناول الأكل ثم .. سمعت صوت سقوط الصينية التي تناثرت محتوياتها على الأرضية! زميلتي مريم عند جهاز الكمبيوتر، رفعت رأسها عن الشاشة وقالت: لو بمزاجي لكنت قذفت به من النافذة هذا المتعجرف.

تركتها وأسرعت نحوه أفتح الستارة.

المرة الأولى التي أتكلم فيها إليه؛ فقد رجعت لمزاولة هَم ومتاعب المرضى بعد إجازة قصيرة تبخرت بسرعة.

صدمت بالفوضى التيار الستار كأنه مراهق متمرد، ألا ينظر لنفسه؟ خمسيني شديد التكبر والعناد، فقلت بلهجة هادئة أن ما يفعله خطأ ولا بد أن يأكل حتى .. كأنه أخرسني بتلك النظرات النافذة المحتقرة لوقوفي، بدوت عنده أقرب شيء إلى حشرة أو عبد تحت مشيئته ينتظر الإعتاق من دين لا يرد ولا يسدد!

علام كل هذه النظرات الهجومية الوقحة ؟ تصنعت كردة فعل دفاعية ألا مبالاة أمامه وكررت عليه بصوت بارد، أن ما يفعله خطأ وأن الأكل المبعثر على الأرض محسوب عليه ضمن نفقات العلاج، ما كان عليّ أن أخاطبه بهذه اللهجة ولكني اضطررت إلى ذلك، ولكنه أخذ يضحك باستهزاء واضح ثم خرجت كلماته مصحوبة برذاذ لعاب فمه: تسمون هذا الشيء التافه طعام؟! يعني ستتركني بلا عشاء، تتحداني يا.. يا قزم ألا تعرف مع من تتكلم؟ كلماته تزداد

صلافة واستفزازًا، انصرفت الممرضة بعد ترتيب الفوضى وقد أشحت بوجهي عنه متجاهلًا إياه، أطلب منها الاتصال بالطبيب المناوب وهي تخرج من الباب، واضح أن الرجل احترق بغيظه من برودة لهجتي الثلجية التي نجحت في إعطاء مفعولها معه وهو يصرخ محتجًا: أنا الآن جائع هل تفهم أم أنت أصم.

تبسمت في وجهه وأخبرته بأن عليه أن يتحمل المسؤولية وينتظر طلوع الصباح حتى موعد الفطور على عكس ما تنص عليه أنظمة المستشفى؛ ارتجلت قراري هذا بغرض الانتقام وتركته وهو يبرق ويرعد، أتجاهله للمرة الثانية عله يتوب عن عنجهية الفارغة، يده اليسرى ملفوفة بالجبس، ألا يرحم نفسه؟

تصورت أن السبب حادث سيارة على الأغلب جعل هذا الثري يهرع إلى مستشفانا فيتخيل أننا خدم عند سيادته! قبل أن أسألها وجدتها لا تزال تحدق في شاشة الكمبيوتر، موقعي الوظيفي يتطلب مني بعض الصرامة ومريم حينما أتزامن معها في المناوبات الليلية، تصبح رخوة ومتكاسلة هذه العزباء

الجميلة، أتساهل معها أحيانًا، هذا الجنس اللطيف كم نضعف ونذوب أمامه كالشمع، نشظى عطرًا لحظة الاحتراق فيه والـ. لفت انتباهي كفها البيضاء تلوح في وجهي: جعفر .. جعفر ماذا بك ؟ حاولت لملمة الارتباك الواضح في نبرة صوتي وهي تبتسم بود تمارس ابتسامة أنثوية خبيثة: أكيد مسلسل "نور ومهند" التركي، أنا أيضًا أحب حكاية هذا المسلسل .. أنت ما رأيك ؟ قصة حب عظيم بين اثنين!؛ استعدت تركيزي وتوجهت بصرامة مصطنعة للحفاظ على الشكليات هنا، لا أريد أن أبدو ضعيفًا أمامها، دفنت أحاسيسي مذكرًا نفسي أني رجلٌ متزوج وسألتها عن ملف مريضنا الخمسيني المزعج ، متجاهلًا ملاحظتها المشاكسة التي تريد جري إلى الكلام كيما أرقص لمجرد التسلية معها وحسب مزاجها؛ نظْرة من عينها ذات مغزى مشحون بالعتاب والتلهف إلى شيء ما تهرول خلفه وهو يهرب، فأشارت إلى شاشة الكمبيوتر: تفضل هذا موقع (غوغل) على الشبكة اقرأ ما هو مكتوب، تصفح حتى الصباح، الرجل واحد من "هوامير البلد " هو ذا الملف الذي يجب أن تعرفه؛ توقفت لأقرأ تلك الصفحات الافتراضية، عامرة بالصور والمقالات والأحداث، سيرة الرجل من

بوقار بيت الأدب

النوع الدسم فهم أحد أعمدة الاقتصاد في البلد، من النوع الذي يفطر في لندن ويتغدى في روما؛ شدني عنوان محدد نقلته جريدة محلية على موقعها الإلكتروني .. (رجل الأعمال العربي المعروف عصام الدخاخيني، يحاول الانتحار) هنا فقط قاطعتني مريم وهي ترش معطر الجو، أثار جيوبي الأنفية في هجوم مباغت، فـ.. فعطست. عطستي الآن تفتح ثغرة خرافية في أنبوب زمني يمتصني ويمتصني .. وهوب، وجدت الرجل يضحك وهو ينصحني باستنشاق رائحة البحر والمشهد أمامي يفيض بالأبهة والفخامة، مريم تكاد تلتصق بي وملابسها تبدو مختلفة كليًا، تهز رأسها وهي تأخذ من الجرسون تلك الكأس السياحية المليئة بعصير الفاكهة الملون، تخاطبني: جعفر أنت غريب الأطوار، الرجل يكرمنا برحلة بحرية وأنت تعامله ببرود، ما أثقلك يا أخي، لا تحدق فيَّ هكذا أمام الناس و اشرب عصيرك قبل أن يسخن.

الجرسون ينحني بالصينية في لباقة يبتسم، قدم أمامي تشكيلة العصائر اللذيذة وعلب البيرة الخضراء، أخذت منه عصير الليمون. بصري يقفز إلى تفاصيل جسد مريم مثل فتيات الإعلانات مكتنزات بالجمال والغواية، لا

بوقار بيت الأدب

أصدق " البكيني " البنفسجي منحوت على جسدها يهتز كلما ضحكت مع السيد عصام وضيوفه على اليخت، فيسألني الرجل: وإلا ما رأيك في الموضوع جعفر؟

بدوت مثل الأعمى في حريق، بلاهة تشل تركيزي ومريم تلكزني بمرفقها متضايقة، فقلت: طبعًا طبعًا النتيجة منطقية يا سيد عصام، المهم أنك بخير فقد بذل كادر غرفة العناية المركزة أقصى جهوده لإنقاذك، حافظ على حياتك سيد عصام، أنت مفخرة لبلادك.

يضحك بمرح ويقول: الحمد لله نجوت من الموت، وخسائري في هذه الكارثة العالمية التي هزت الاقتصاد أقل من غيري.. نعم كما أقول لكم، قمت بتصفية شركت الورق وبعت عمارتي في وسط السوق وقبلت بشريك في مزرعة المكافأة، المهم أن لا أغرق كليًا أن رد الجميل واجب، السيد جعفر وزوجته مريم يستحقان المكافأة.

مريم تكون زوجتي ! والسيد عصام يسلمها شيك ترقص فوق سطحه أرقام شهية وآخر يدسه في جيب سترتي؟ أشياء تستعصي على فهمي أواجهها بالابتسامات الساذجة وها أنا أول مرة فتحت بصري، ساعة الحائط، إنها مألوفة بالنسبة إلى موظف يلتصق هنا بجحيم العمل الليلي، إنها ساعة المستشفى الخاص الذي أعمل فيه تشير إلى السابعة ؟ وهي ذي مريم ترتب بعض الملفات ثم تترك جهاز الكمبيوتر يعمل كما هو تصدر عنه معزوفة موسيقية تخص مسلسل "مهند ونور"، تلتفت لي وتبتسم وتتخابث كعادتها: صح النوم، على العموم هذه هي ميزة أن تكون مسئولًا

بيت الأدب

-ماذا تقصدين ؟

-تفضل ها قد بدأت مشاكل السيد عصام، اذهب وحل الموضوع.

بدأت حواسي تستيقظ، لكن جمجمتي محتقنة بوجع كريه؛ قد يكون بقايا عصير الليمون الذي شربته في الحلم أوأنني أجزت لنفسي شرب البيرة الكحولية في فضاء الحلم المباح، هو التعب لا غير . ها هي هذه العزباء

بوقار بيت الأدب Bouvar

الجميلة أمامي بلباسها الأبيض المحتشم و.. أين؟ أين الشيك؟ أفلت السؤال الغبي مساحة فمي وبلغ مسمع الموضوع

-عن أي شيك تتكلم ؟

أخبرتُها أنه مجرد حلم تافه وانتهى فضحكت.

-خلنا من أحلامك، هذا الرجل لا يزال يصرخ عالج معه الأمر، على فكرة عرفت ليلة البارحة وحضرتك نائم، عرفت أن السيد عصام الدخاخيني يمتلك نصف أسهم هذه المستشفى!

صدمة تفاجئني في التوقيت الضائع، الموسيقى تتابع تدفقها وأنا أرتبك وأحس بالورطة تضيق حصارها على أنفاسي. كان الإجراء الاعتيادي المطلوب أن يتم إدخال السيد عصام في جناح (VIP) و .. ولم أكد أفتح فمي بكلمة حتى رأي مدير المستشفى وهو قادم إلينا وعلى وجهه المحتقن عاصفة رعدية موشكة مصحوبة بغيوم بيضاء من الأطباء والممرضين وهجومهم بلا هوادة ومن هو المسئول؟ أنا طبعًا أقع الآن في دوامة الإحراج وخلاصي يتعذر من هذا المأزق،

بوقار بيت الأدب

ارتبكت وارتبكت، قصدت سريره أحاول شيئًا ما، ولكن الجسد .. شرشف السرير خارج النافذة! لحظات حتى صرخت " مريم، مريم السيد عصام إنه .. " دخل الطاقم الطبي إلى الحجرة ولم أعد أسمع شيء أحساس الخوف الذي تملكني أما المنظر، طغى على كل شيء رغم الجلبة التي حصلت، الممرضة مريم تقترب منى عند باب الحجرة، تقترب من حافة القلق المحتشد في صفرة وجهي المذهول وهي تقول: هذا الغبي اليائس لقد فعلها، ثم بكت وهناك المزيد من الممرضات تركن الأقسام التي يعملن فيها، كل ما حولي فوضوي ومرتبك في نهاية مناوبة ليلية لا أحسد عليها.

***

" وهـي مـستريحة "

اختارت حصير وحدتها في البيت الكبير، رائحة الطين تختلط مع عبق زيت الورد حيث تجلس عند ظل النخلة العجفاء تمشط شعرها الهامد مفجوع البياض غادره جنون الشباب. لا أذكر المقطع الأخير من تلك الأهزوجة الشعبية التي ترددها عن زمن الغوص ولا .. لم هي صامتة الآن؟ أسمع صخب العصافير فوق سعف النخلة ويغيب صوتها الحنون هذه اللحظات؛ أمرها عجيب جدتي! لا عجب في الأمر إنه سكون الحزن والفقدان وسواد خسارة الرجل الذي أحبته، رحمك الله يا جدي. خمسة أشهر ولا زال جرحك طريًا يسكن إحساسها، خمسة أشهر ولا زال خيالك مماثلًا في أحلامها، دائمًا ما تحدثني أن جدي يزورها في البيت ويردد على مسمعها سؤال مخيف، يسألها بوجه مُزرّق، لماذا لا تأتين؟! وفي كل خاتمة حلم يمد يديه وهو يبكي!

لا شيء غير حزن الفؤاد على هذا السبعيني الطيب؛ إن هي إلا فوضى حواس مضطربة ينتهكها الحلم مع وسوسة إبليس الرجيم. في كل مرة كنت أواسيها ولا

بوقار بيت الأدب

أدري إن كانت تقتنع بكلامي، فأكثر ما يفسد عليّ الزيارة أن تكرر ذلك الحلم المخيف الذي يستحضر سيرة الموت؛ تمشط شعرها في صمت والبيت شبه مهجور وهي لا تعرف بوجودي، كنت ألملم عباءتي أرفعها عن تراب "الحوش" وفي يميني هاتفي الجوال أصورها على غفلة، لكن هناك من اصطادني وكشف أمري حينما باغتني صوت جارة جدتي وصديقتها وهي تستفسر: حورية ماذا تفعلين؟ فوقعت في مصيدة الإحراج، التفتت جدتي إليّ.

عادت تمشط شعرها وكأن شيئًا لم يكن ! خفت أن تكون قد خاصمتني أنا أيضًا بسبب الخلاف الناشيء مع أمي وعلى إثره انقطعَت منذ وفاة الزمرد؛ أذكر أن أمي قد حذرت أبي مرارًا وتكرارًا عن أهمية الاحتياط في مسألة التركة، فالبيت كبير ولكن أربعة رجال وثلاث نساء يجعل القسمة صعبة وحرارة المنافسة في الهجوم بالوقت المناسب تضمن اللحم والشحم لمن يبادر بالأسبقية؛ أبي ما كان راغبًا بكل هذا الطحن في سبيل متاعٍ زائل، وبما أن أمه "جدتي" وحيدة في البيت، فضل أن يكرم مثواها ويؤجل موضوع التركة تفادياً لنار المشاكل وانتشار دخانها وسط العائلة؛ لا شأن لي بمشاكل الكبار، لكني

اليوم أخاف من صمتها .. جدتي التي تنوء بأحمالها من تعب العمر ومشاكل الأبناء والبنات، بدت لي وحيدة عند تنورها الدنيوي تخبز أرغفة قلقها في استراحة النهار حيث لا تستريح، ما عاد أحد يحن إلى رائحة هذا البيت، نشبت المشاكل وتفجرت النزاعات فحسمت جدتي ذاك اليوم صراخهم المتصارع على التركة وهي تحلف في لحظة غضب، رأيت كيف احتقن وجهها الطيب بالإحباط والخيبة، هي كلمة واحدة قالتها .. "البيت سيبقى على حاله حتى أموت، لا تُعتِبوا هذا البيت قبل أن تنظفوا نفوسكم المريضة، أخرجوا لا بارك الله فيكم "، وطردتهم جميعاً يومها، نعم أتذكر؛ أيقظتني جارة جدتي من سهومي وكررت سؤالها لي عن تواجدي في هذا الوقت. امرأة فضولية حقًا، تسأل عن ما لا يخصها، أوضحت لها أني جئت لزيارة جدتي بعصبية هكذا قلت. فخرجت هذه الجارة الثرثارة وهي منزعجة وبقيت أنا وجدتي، ها هي ثانيةً في هدوء الظل تمشط شعرها غير عابئة بشيء من ضجيج هذه الدنيا، اقتربت منها وقبلت رأسها، فاضت رائحة زيت الورد وامتدت أكثر وسَافَرت بي بعيدًا إلى طفولة شقية كنت قد.. أتذكر نفس الرائحة وهي كانت هنا في ذات المكان الذي تحب،

تمشط شعرها وأنا شقية العينين أعبث بأغراضها. دعتني للجلوس إلى قربها وصبت في راحة يدها اليسرى شيء من ذاك الزيت العطري وسرحت شعري على شكل ضفيرتين صغيرتين في تألقهما وهي تقبلني بحنان، تهلل وجهها فرحًا لما رأتني؛ أحسب أنها عندما جئت إلى البيت لم تدركني حواسها كما يجب، أخذتني إلى حضنها الدافيء وهي تقول: ابنتي حورية، أصبحت امرأة، ما شاء الله، أمك تمنعك من زيارتي هه؟ الله يسامحها. الناس تركض وراء الدنيا، أبوك كيف حاله؟؛ فقلت لها بأني مللت كثرة المشاكل بسبب نصيب الكل في تركة البيت الكبير، لم أرغب في إشعال الوضع أكثر مما هو عليه، عمي الأكبر يهدد برفع قضية حجز على البيت ويتهدد بالوقوف ضد جدتي في المحكمة، لا يمكن طبعًا أن أفعلها، أحب جدتي وكم أتمنى أن تزول هذه المشاكل ويعود البيت الكبير إلى هدوءه الذي كان حورية، رأيتها تمسح شعري وكأنها تريد أن تقول شيئًا، فانتظرتها حتى سألتني: تتحننين حورية ؟، بدت الفكرة معقولة، شعري الأسود الفاحم تصبغه حمرة الحناء لأول مرة، سيكون رائعًا، فوافقت وسلمتها فرحتي وشبابي العشريني المشتاق للتجربة الآن، أريد سحر هذه الحناء ولتأخذني

بوقار بيت الأدب

جدتي إلى شيءٍ من أشيائها القديمة؛ أشياء خرجت من صندوقها القديم ، طاسة معدنية مزخرفة، كيس حناء مطبوع فوق سطحه النايلوني فتاة هندية جميلة، قنينة ماء ورد، ثم بمهارة عجنت مزيج سحرها وخضبت شعري بحكايات قديمة تحمل رائحة الأمس الذي لا يعود، خضبته بكفها الحنونة وأنا أحدق في مرآتها العتيقة، سطحها الفضي مبقع بصدأ الأعوام التي شاخت: يا جدتي أحسبك أيضًا كنت تحدقين بنفس المرآة، أنثى جميلة تتزين لرجلها بالحناء والبخور ويطير من يدها حمام وعصافير وأطفال وأرغفة خبز وحبات سكر وتمر! أنتشي بهذه اللمسات الجميلة من يدها ولا أدري كيف أوقظتني من غفوتي وانتهت بسرعة كما بدأت وهي تلف شعري بقطعة قماش وتبتسم. زيارتي هذه المرة مختلفة، شعور بالفرحة جعلني أتجاهل هاتفي الضاج بموسيقاه الالكترونية ومكالماته المؤجلة الرد .. فجدتي اليوم تدللني وكأني لا زلت طفلتها كما الأمس ؛ دخلت المطبخ وحَضَّرت وجبة الغداء، لم ترضى مني مساعدتها، وكأني أميرة مرفهة في قصري الزمردي.

جدتي تحبني كل هذا يسخن! أأذكرها الآن بشبابها في يومٍ ما؟

تذكر أمي بشيء من الضيق أنني ورثت هيئة وجه جدتي، عينين طيبتين فيهما سذاجة وعناد وبشرة صفراء دهنية وأنف نصف معقوف وشفاه مختفية تحتاج إلى حُقن "البوتكس" لتليق بفتاة مقبلة على الزواج .

وجودي عندها بث فيها كل هذه الحيوية والسعادة .. كبيرة في السن الوحدة تنهش عمرها وتجلب عليها الحزن لست مبالية الآن بما قد يصدر عن أمي، أنا أزور جدتي وأتزود من طيبتها وسط عالم تتناهبه مخالب القسوة والمصلحة والنكران؛ جدتي هنا مثل جزيرة في بحر البشر الموّار بالتناقضات التي تطغى على حيواتهم سأتي كلما أحببت لأتزود من اخضرارها قبل أن أصاب بيباس الروح، حيث هنا روحي ترقص فرحة الحياة وبهجتها وساعدتها في تحضير مائدتها الصغيرة، سفرة خصوصية مزركشة، حاكتها أصابعها المجعدة وعرقها ذات صيف الله، ما أطيب سمكاتها المقليات، مستلقيات فوق بخار الرز الأبيض المخلوط بالزبيب والهيل، تبسمل قبل أن تضعه في الصينية أمام جوعي المنتظر. وتغدينا في استراحة الظهيرة وكم اندهشت بانقضاء الوقت ونفاد الرز والسمك؛ أكلت بشهية أكثر مما آكل عادة، خجلت من نفسي حينما

بوقار بيت الأدب

وجدتُ تلقائيًا أصابعي في فمي ألحس طعم السمك وجدتي تسألني: لا زلت جائعة؟

طمعي في الاستزادة ليس إلا وجبة لذيذة من يد جدتي الطيبة، شكرتها وحملت عنها سفرتها الخصوصية ونظفنا المكان، وهي قالت أنها نسيت اليوم "غُسل الجمعة " ثم غابت عني وراء باب الحمام.

اتصلت إلى أمي حتى لا تقلق عليّ. ثرثرت مع صديقتي أخبرها عن رائحة حناء جدتي تختلط بشعري أكثر روعة من أفضل صالون في المدينة ،الحمام، وثرثرت وضحكت وأنا عند النخلة، ختمت المكالمة، حل في المكان هدوء كريه، فأقرأ ساعة الهاتف وأرتاب من بقاء جدتي كل هذا الوقت في الحمام، أسرعت إلى الحجرة أطل من الباب؛ كانت تستريح على مرقدها القطني، تُسند ظهرها مغمضة العينين ومسبحتها سقطت نحو الأرض، أيقنتُ أنها الآن نائمة بعدما انتهت من أداء غُسل يوم الجمعة والصلاة، فكرة الآن سيكون تصويرها رائعًا، هاتفي جاهز للعمل وأنا سأجرب لمساتي الفنية الشقية وأعرضها مع

صديقاتي، غالبًا ما نتبادل مقاطع الفيديو والتعليقات والضحكات وها هي عين الكاميرا تتجول فوق تضاريس وجه جدتي هاديء غير مكترث بهذا العالم؛ توقف التصوير، تومض الشاشة بصورة أبي

أهلًا أبي.. نعم اليوم أنا في ضيافة جدتي.. تريد أن تكلمها.. يعني أنك لم تشتاق إلى ابنتك الحبوبة .. حسنًا سأوقظها أولًا لحظة، امد يدي نحو هدوئها، أعرف أني سأُفسد قيلولتها الآن وهي مستريحة في جلستها ولربما انزعجت ولكني ناديتها مرة، مرتين، ثلاث وقلبي ينقبض خوفًا، أحدق في مسبحتها وأتحسس يدها باردة كحال وجهها الطيب سافر بعيدًا في ملكوتٍ آخر و.. تنفلت صرختي مني، تسقط القطعة القماشية التي تلف شعري، وتتوزع رائحة الحناء هنا عند جسدها لا زال طاهرًا بماء غسل الجمعة، يصعد نحو سماوات الله.

***

"أحاسيس أسمنتيه تتصدع"

الإشارة حمراء، سيل متكدس من المعدن الجهنمي يتقيأ ضجيجه الدخاني الخانق.

صيف عدائي مثل صاحب السيارة "الهامر" يلاصقه من الخلف، يطلق نفير سيارته غاضباً من الإشارة التي تفتح المسار بالتقسيط المريح.

حافظ على برودة أعصابه ولم يكترث لصاحب السيارة المتوحشة، ولكنه التفت لحيرة وجهها الجميل فوق رصيف من الانتظار والقسوة.

ما أقساه من عالم، حري بهذا الجمال أن يركب أفخم سيارة على الشارع لا أن يُهمل هنا للحر والزحام والدخان.

لوح لها من وسط الزحام، الإشارة حمراء، خطواتها سريعة، أعين الرجال أسرع وكأنها تبدي التفاتاتها مستيقظة على غفلة، كيف فوتت هذا الملاك!

جاءت إليه وصعدت السيارة، اختارت مقعد الراكب الأمامي! دفع إليها علبة المحارم الورقية، تأمل تعب وجهها الأنيق القسمات ذاب نصف ما عليه من بودرة الزينة، تضع عدسات ملونة أم إن هاتين العينين لحورية من الجنة نزلت للأرض؟!

الإشارة خضراء، أبواق السيارات غاضبة، الرتل الطويل أمامه تحرك، ارتبك قليلًا وهي تضحك.

لذيذة هذه الضحكة، تؤنس الروح بعد يوم عمل روتيني مُتعب وقال لها:

_نعم أضحكِ، ماذا بها الدنيا؟

_التفتت إليه، نظرة فاتنة من عينين تهاجمانه بجرأة فقالت:

_خُذني إلى أي مكان تُريد، وأنا سأبهـ..

أنامل من جمر أو معصية، ماذا فعلت؟ جمد من حركتها الجريئة ولم يرف لها جفن، تبدو واثقة من نفسها، صرخ فيها:

يا "....." ماذا فعلتِ؟

_غبي أنت أو تستهبل، خُذني إلى أي مكان، سأراعيك في السعر!

_أنا لم.....

_أنت ناديتني لغرض واحد!

غمزته بعينها اليسرى، ضحكت بخبث وعبثت بأصابعها في شعره..

مساكين الرجال، الواحد يفقد شعره بسرعة، حرام!

ازدادت عواصفه اتقادًا، شيطانه هنا ينفخ في جمر الفرصة السهلة، لِمَ لا يأكلها وهي مشتعلة اللذة؟ عشرينية تفيض طراوة وتمردًا، ستُنعش ما تيبس من عروقه الظمآنة، وتمضي به إلى فراديس النعيم.

عن أي فضيلة يتحدثون؟ عالم يحكمه البغاء والجنون، هيا لا جدوى من أقنعة الطهارة فبدواخلنا مساحات معتمة من الزيف لا نكشف عريها، الفرصة

في اليد، الراتب ينتفخ بخيره الأخضر في المحفظة، هذا الانتظار الأخرق الحائر على رخام الأخلاق لا جدوى منه الآن!

الحياة بلا متعة انتحار مؤجل. شيء من التغيير يشعل الروح، الآن الطريق إلى السعادة يبدأ من هذه الانعطافة إلى ساحل البحر.

_نظراتها كلها ثقة وتحفز، تركها تعبث بشعره المصبوغ، تعبث بأحاسيس أسمنتيه تتصدع، عما قريب تفجر ماء معصيتها وترتاح، أوقف محرك السيارة، أسندت رأسها الجميل إلى عطش صدره.

ها هنا ساحل مهجور، السيارة مموهة نوافذها بقتامة "الرايبون"، تفاحة تتعرى من قشورها، صدر لؤلؤي بخيره الطافح وعرقه الشهي ينتظر مرتعشًا ضراوة المبادرة، وجبة شهية من اللحم الأبيض تتهيأ وتتعطر له في اللحظة الفاصلة، لكنها لفظت يده بفضاضة وانتقلت للخلف....

أدفع أولًا يا حبيبي!

بيدين مرتعشتين فتح محفظته، الهاتف يترنم بأغنية عاطفية يحبها ولا يعرف الآن لم يحبها ولكن يتجاهلها، شاشة الهاتف تومض بطيفها المستكين، طهارة ضحكتها تأتي الآن وتنقذ خرابه.

محفظته تجمدت في يده، المومس قُبحها يتهتك احتراقاً في المقعد الخلفي، معاول تحفر في ذاكرته الصور، تصرخ فيه تؤذن نورها الخفي، أم سمير الحبيبة.

يحدق بشاشة الهاتف، تستيقظ حواسه وتنظف نفسها من الوحل.

أي شيطان لعين مارس لعبتها الدنيئة هذه؟

التفت إليها وقال بحزم:

أنهي الموضوع لا أريد، أنزلي من السيارة.

عندي طفلٌ في البيت يحتاج للحفاظات والحليب، بكاؤه اللعين لا يتوقف، حاسبني بأربعين دينارًا، أو أشتكيك للشرطة!

فكر محاولًا النفاذ بجلده من الورطة، شغل محرك السيارة وقال:

_نذهب للشرطة، معارفي هناك سيقومون بالواجب ولن تندمي!

_دب الخوف في عينيها، لملمت خزيها على عجل وخرجت مبتعده، تُلوث سمعه بالسباب الفاحش، يبتعد عن المكان، يتنفس بعمق ويضحك صافي النفس لا يشوب اطمئنانه شيء. الهاتف يترنم مرة أخرى، فيتمايل طرباً ويرد:

_يا أحلى حبيبة، قلقك اللذيذ يسعدني والله، تعطلت بي السيارة في الشارع دون إرادة مني، نعم نعم نصف ساعة وأنا في البيت.

_عاود الضحك وهو لا يصدق سخافة الموقف كيف نجا وأفلت من تلك الأفعى؟ صدقت الكذبة بسهولة!

***

_واحة أمان يستريح فيها، زينت الدار بهذه الزوجة الطيبة، المسكينة صدِّقت كل كلمة وأفشت ابتسامتها راضية. ترك ثوبه معلقًا فوق الشماعة،

بوقار بيت الأدب

ترك شقاء النهار ونام بعد وجبة "البرياني" الدسمة، نام مخدرًا من طحن الحياة.

البيت هادئ، أحكمت ستائر الحجرة وشاركته الفراش، كيف مر الوقت بسرعته الجنونية؟

كيف انفجر هذا الكابوس الأرعن؟ هزة عنيفة توقظه من قيلولة الظهيرة، هزة أخرى تتبعها هزة وصرخة! استيقظ ليرى وجهها محتقناً بالأسف والغضب والدموع، يسألها فلا يجد إلا بكاؤها فيزداد حيرة.

لم يلبث في حيرته يبحث عن إجابات حتى رمت فوق السرير حقيبة بلون القيء دلقت سم

المفاجأة! حينما تذكرها تتثنى في رقصها وهي في المقعد الخلفي، الملعونة كيف نست قمامتها؟! الصاعقة تكبله الآن، مدهوش النظرات، إحساسه مشلول بالكاد ركز على الهاتف يضج باتصال متكرر....

_نعم؟

أنت السيد محمود صاحب السيارة رقم "......."؟

نعم أنا هو، خير إن شاء الله.

_أكلمك من مركز شرطة العاصمة، عندي هنا شابة تتهمك بالاعتداء على عرضها وسرقتها؟

***

بوقار بيت الأدب

"معادلـة بـسيـطـة"

مللتِ مني "كوثر"؟

هزت رأسها تنفي أي شيء من هذا القبيل، صارت هذه المشاغبة اللطيفة صديقة رائعة تريد أن تعرف كل شيء وأي شيء عن حياتي والذكريات التي مررتُ بها حتى قالت:

-اتفقنا أن نكون أصدقاء، لا تخلف وعدك لي يا خالي.

ضحكت ولكني افتعلت حركة قراءة الوقت من ساعة معصمي، فوضعت يدها الصغيرة تسند ذقنها الأنيق تبتسم في ربيعها السابع عشر وتعاتبني بنظرة مستاءة ..

-خالي، أنت مللت مني؟ لماذا تقرأ الوقت؟ تستكثر عليّ ساعة نتكلم فيها؟ عيد ميلادك القادم ستخسر هديتك!

بوقار بيت الأدب

"إلا الهدية"! ثم ضحكنا معاً، أريد ملاطفة ابنة أخي وبذات الوقت، لا يصح أن أخبرها بكل ما تريد سماعه؛ يبقى هناك للمرء بعض الندوب والخدوش على سطح ذاكرته تؤرقه، توجعه، تحاصره ولا يستطيع الهرب منها إلا بالنسيان ، فلماذا يرجع يتذكرها وينبشها من تحت الرماد؟

أتذكر كان يوماً من أيام الشتاء، وقتها لم يكن البرد على أشده، عندما دخلت أنا وأخي للمقبرة ثم ... لا، هذه الذكرى تحمل في طياتها وجعاً لا يُطاق، الصورة ماثلة في مخيلتي لن أنساها ما حييت، من أثر صدمة ذاك اليوم ظللتُ خائفاً من سيرة الزواج، ماذا لو رُزقت بطفلة تولد كي تموت في يومها؟!

أخي تأثر كثيرًا، رأيت دموعه فاهتز برجٌ في عمق روحي، حتى كلماتي في ذلك اليوم لم تكن ذات معنى وضاعت في نزيف وجعه وهو يخبرني أن الطفلة ذهبت خسارة ولن ترجع، العوض على الله.

-خالي، أين شردت؟

لا أعرف لماذا يمكن أن أسمح لنفسي أن أخبرها شيئًا كهذه القصة التي حدثت في الماضي، لا فائدة من سردها أصلًا. لكن المسألة مجرد قصة موجعة وقديمة، وعندما نتكلم عن أوجاعنا القديمة نتصالح معها ثم نرتاح. أليست معادلة بسيطة؟ تضخيم المسألة في ذهني لا مبرر لهُ من الأساس، أخبرها بما حدث وحسب، ربما هي تعرف القصة، أخبرتها أمها تفاصيلها بلا شك، "كوثر" شابة تتدرج في عنفوانها، من غير المستبعد أن لا تعرف بأن قبلها ذات يوم كانت هناك طفلة صغيرة تحمل اسمها، لم تُكتب لها الحياة، مسألة عادية تمر سريعاً يتسامر فيها الأهل أو يتذكرونها في أحاديثهم بشكل عابر لا تستدعي كل هذا الاضطراب أو الاستنفار النفسي.

"اسمعي يا كوثر، ذات يوم ... ومن المؤكد أنتِ تعرفين القصة". انطلق أذان المغرب ثم وضعت نقطة على آخر سطر من معادلتي البسيطة، أخبرتها وياليتني لم أفعل، ماذا يحدث لها؟! كلمتني بقلق وفارقتها ابتسامتها المرحة ودموعها تنهمر:

-أنا لأول مرة أعرف و...

بترت باقي كلامها وغادرت حجرة المكتب. شعرت وقتها بأن ظل ضميري يخاطبني بفظاظة وأسف .. "غبي ماذا فعلت "؟!

***

حاولت الاتصال بها في ساعة مبكرة من مساء اليوم التالي لكنها لم ترد على هاتفها، فاتصلت بأخي حتى أبرد اضطرابي القلق ..

-أهلا بك يا أخي، الحمد لله.

-كوثر؟ لا أدري ماذا بها، هذا سن المراهقة، من أمس رجعت البيت وهي تبكي ولا تريد أن تكلم أحد! أنا أريدك في موضوع آخر، أبحث لي عن سيارة للبيع و...

-عندك سيارة يا أخي.

-سأقدم السيارة هدية لأم كوثر.

-حسناً، سأتصرف وأتصل بصديق أثق به، مع السلامة.

بوقار بيت الأدب

-مُتعجل دائمًا يا أخي، أعطني من وقتك الثمين خمس دقائق، أو أن المثقفين يبخلون على عامة الناس مجرد الكلام معهم؟

أخذ يضحك وأنا مضطرب تحوم في رأسي دوامات متداخلة من الأسئلة. أنهيت الاتصال وشرعت في محاولة إصلاح ما خربته. هل أذهب إلى ابنة أخي كي أتحدث معها؟ ماذا سأقول بعد كي أرتقي بموقفي الغبي وماذا سأشرح؟ حينما ينشغل المرء مفكرًا في مأزق أو مشكلة يسرقه الوقت حقًا، ها قد انتصف الليل وأنا أضرب أخماسًا لأسداس وأرهقني التعب. ضخمت الموضوع أكثر من اللازم وحسب، أطفأت حجرتي وتعاركت مع أفكاري لكن أخيرًا نمت.

استيقظت بمجرد سطوع نور الشمس في وجهي متسللًا من نصف الستارة المفتوحة، ساعتي تشير للتاسعة والنصف، هاتفي يستدعيني ..

-أهلا أم كوثر، صباح الخير.

لا أدري ماذا تريد مني زوجة أخي؟ أوه؛ أكيد ستعاتبني من بعد أن تكلمت مع ابنتها و ... هذه ورطة أخرى لم أحسب لها حساباً يا إلهي، سأواصل الكلام على أية حال وأمري إلى الله ..

-ومن أين يأتي الخير؟ أنت قلبت البيت علينا، أخبرت ابنة أخيك وها هي لا تريد أن تأكل وبالكاد تكلمت معي!

-أنا بصراحة أأأ...

ما هذا الذي فعلته؟ كأنما جعلت الشيطان يرقص فرحاً في بيت أخي ونيران الخراب تعربد فيه، هي معادلتي البسيطة!

-أنت أنقذتني، لكن أنا لا يهمني ما إذا تحقق لابنتي أن تغير اسمها أم لا كما تطلب؟ أنا يهمني شيء واحد وقد حسمتُ القرار فيه، أخبر أخاك بأن يُطلقني!

-ماذا؟! أنتِ جادة يا أم كوثر؟

-أخي يحبكِ، حتى أنه أمس طلب مني البحث عن سيارة كي يشتريها لكِ و...

بوقار بيت الأدب

-هو هكذا من سنوات يحاول شراء رضاي وسكوتي، لكن أنا تعبت من الكذب على نفسي، لا أريد الاستمرار!

-هداكِ الله أم كوثر، ثم أن القصة...

-القصة مبتورة عندك كما نقلتها لأبنتي، أنت لا تعرف الحقيقة.

-.....

-ابنتي كوثر البكر حينما ذهبت أنت وأخوك تدفنانها، لم تولد ميتة كما أوهمك وصدقته؛ أخوك ذات يوم كان يفور بالغضب فضربني على بطني. "بكت".

بدأ رأسي يوجعني وصار سقف حلقي جافًا ثم واصلت كلامها الغارق بصوت بكائها ..

-ابنتي صارت في بطني مريضة، حتى تأكد لي موتها وأنا في الشهر الخامس، قتلها والدها ثم جاء يعتذر ويقدم الهدايا!

بوقار بيت الأدب

-أنا آسف و... سببت مشكلة لكم.

-على العكس، أنت ساعدتني كي أوقف مسلسل الكذب، أنا متواطئة بصمتي في هذه الجريمة، الآن سأخرج من البيت بلا رجعة، قُل لأخيك يُطلقني أرجوك.

***

بوقار
بيت الأدب

"ها أنا الآن أكوي جرحي"

حاولتُ الهرب من وجعي؛ فلا بُد من نسيانها، لكن كيف سأفعل هذا؟

أخبرتني أختي الكُبرى أنه كي أنسى امرأة عليَّ كوي جرحها بامرأة أخرى، لم أتقبل منطقها، ولكني استمعتُ إليها على سبيل المجاملة في هذه المحادثة الطويلة عبر الهاتف، ما كنتُ وقتها أتحمل مجرد إثارة الموضوع، جرحي طريّ، وإحساسي معطوب، لا أقوى على الجدال بالرغم من مرور المدة الماضية التي تزلزل فيها عرش حبي الوهمي، وما كنت أعتقدهُ خياري الصحيح في شريكة حياتي.

لكني على أية حال سأنسى أن " جواهر " كانت زوجتي ذات يوم، وأنني ... الحمد لله، المجمعات التجارية في حالة نشاط متواصل، حتى وإن لم أرغب في التبضع، أستطيع هنا الترويح عن نفسي، والجلوس في أقرب مقهى حيثُ أعيد ترتيب " أناي " في هذا العالم ولو من باب الضحك على نفسي.

قرب الجدار وفي أي مكان، أنا هكذا دائمًا أفضل الجلوس.

هل هذا يعني أنني أحتمي من شيء مجهول؟

لا أدري ما السبب الذي يدعوني؛ لفعل هذا، جلستُ ثم حضرت نادلة المقهى، فطلبتُ قهوة خفيفة بالحليب.

بحركة عفوية سقطت نظارتي الشمسية من على الطاولة،

لمَّا انحنيتُ؛ كي ألتقطها، لاحظتُ أمامي عباءة طويلة تكاد تزحف على أرضية رخام المقهى وهي تتجه نحوي. رفعت رأسي لأجد فتاة عادية محجبة، تحاول الابتسام بوجه شبه حزين، كانت تحمل زجاجتيّ عطر.

_أهلًا بشيخ الشباب، وصلت تشكيلتنا الجديدة من العطور العربية، و...

كنتُ أريد إنهاء الأمر، والانسحاب بلباقة كما أفعل في كل مرة مع مروجات العطور الأجنبيات، ولكنها فتاة محلية، رشت عطرًا غريباً على كفي لم يعجني، جاملتها فاشتريتُ الزجاجة ثم انصرفت.

بوقار بيت الأدب

ربما ساعة هي مجمل المدة التي قضيتها في القهوة، لكن ما الذي حصل لي؟ بقية يومي ظل طيف الفتاة عالقًا في ذاكرتي. وجه حزين، عطر، ابتسامة عابرة.

فأصبحت ذاكرتي منشغلة بها حتى إشراقة صبيحة اليوم التالي!

أنهيتُ عملي سريعاً وذهبت، كانت داخل المحل ترتب العطور فوق الأرفف الزجاجية المضاءة.

شعرتُ تلك اللحظة أنها لا ترتب شيء غير صفحات حياتي من جديد.

صرتُ أحب رائحة العطر وتكررت زياراتي للمحل بقية أيام الأسبوع، ثم وجدت قلبي يركض حتى آخر الشهر والذي يليه؛ ماذا فعلت بي هذه الفتاة؟ لم تكن تملك معشار جمال " جواهر " ولكنها طيبة ومتواضعة على عكس تلك التي آثرت التخلي عني من بعد أربعة أعوام بذريعة مستواها الثقافي غير المتكافىء معي، لم أنجب منها وهذا من لطف ربي.

بوقار بيت الأدب

خرجتُ من تلك التجربة جريحاً، أبحث في طريقي عن طوق نجاة، لم أكن أدري أن " حليمة " المتواضعة في جمالها هي التي ستغير مجرى الأمور.

تحت ضغط الأعراف والتقاليد لا بد أن أجد لي أي ذريعة؛ كي ألتقي بها، قلبي يهرول في نيران الشوق، يستوطنه الظمأ، لست ذئبًا كما قد يتبادر إلى أذهانكم، أنا إنسان أحن إلى جزئي الآخر، والذهاب إلى المحل وتكرار الشراء خيار مضحك، وليس حلًا منطقيًا، فتكلمت مع أختي كي أجد حلًا ما، لا أريد هذه الدوامة الغبية.

صار بيننا جوًا من الثقة، شيَّدنا فوقه جسرًا من الجمال تطرب له الروح وترتاح، هناك خطوة صريحة واحدة لا بد منها حتى أصل ضفتي بأمان، وأستر على نفسي وعليها.

كانت أروع مكالمة هاتفية، وأجمل نصف ساعة مع نبرات صوتها، وهي تخبرني بأنها ترى فيّ الرجل المناسب الذي يتحلى بالمسؤلية، وأنها متأكدة من مشاعرها

وكلام كثير أكد لي أنني أخيرًا أهرب من مأزق الانفصال، يا هذا العالم اسمع صدى صرخة فرحي يتحدى الحزن وينتصر!

كل ذكرياتي المزعجة سأكنس بقاياها منذُ اليوم، حتى ألبوم صور زواجي، والذي اضطررت للاحتفاظ ببعض صوره سرًا، وكنت أمني نفسي بالمزيد من الوهم أننا سنعود ذات يوم تتمازج روحينا من جديد، سأتخلص من عبئه؛ كي أصنع فرحي الجديد. كل شيء في " حليمة " يخبرني أنها على قدر كبير من الجمال في أخلاقها و نُبل خصالها وعفتها.

الحمد لله، ها أنا الآن أكوي جُرحي، " حليمة " أبلغت أختي بأنها موافقة، يومها عانقتُ فرحي ثم راقصته ثملًا بسعادةٍ غامرةٍ أتنفس عطرها لأول مرة وقد خرجت من حصار كآبتي.

تبسمت في وجهي ثم قالت بمكر :

-الآن كلامي صحيح، أم لا؟ لا تنسى أنني أكبر منك بسبعة أعوام.

-لا تأخذني بالكلام، ادفع فاتورة الخطَّابة، أم الفاتورة على أخيك أيضًا؟

-يالطيبة قلبك أخي، صدقتني بهذه البساطة؟

أنا أتقشمر* حبيبي. المهم أن كلامي صحيح أو لا ؟

-متأكد من هذا كما أنكِ تبقين معلمتي التي أعتز بها من بعد أمي يرحمها الله.

-اسمع كلام معلمتك إذًا، احلق هذه اللحية الكثة، تحتاج إطلالة جديدة، أو تراها حليمة ربما تغير رأيها فيك.

-إطلالة جديدة، وكل شيء جديد، المهم ألا أخسر هذه الفتاة يرحم الله والديك.

ضحكنا معًا ثم تردد صدى الضحكات في الأيام التالية، تذوقت الفرح، ورتبت فوضاي التي حاصرتني، وها أنا أتنفس من جديد، ياه ما أروع أن أتنفس وأنا أهرب من العمق نحو جنة " حليمة " أنتظر يومنا الموعود بفارغ الصبر، إلهي تمم فرحتي.

---

*القصد من الكلمة : " أمزح" حسب اللهجة المحلية الخليجية.

بوقار بيت الأدب

" ورطة لذيذة ! "

تأخرت الطائرة عن موعد إقلاعها، قاعة الانتظار تغص بالركاب، كيف يتوتر داخلي قبل هكذا موعدٍ قادمٍ مع صندوق معدني طائر؟ لا أحب الطيران، حاولت أن أشغل نفسي بالهاتف الجوال، أتفقد رسائل " واتس آب " ثم أقفز إلى " فيس بوك "، رسائل تتكاثر من هنا وهناك، بعضها أو أكثرها دعوات لبرامج أمسيات ثقافية، اخترت عدم حضورها؛ لكثرة السهل المكرر في خطابنا الثقافي العام. هناك رسائل أخرى مجرد مجاملات من النفاق الافتراضي المقبول والشائع !

هكذا وأنا في غمرة انشغالي، أحسستُ فجأة بهجوم عطري أتحسسهُ وأميزه، ربما هو قادمٌ نحوي؛ هذا العطر الأنثوي الطاغي، تضج لمقدمه الواجهات الزجاجية للمطار.

ما كدتُ أرفع رأسي، وإذ بخيالها هنا يُلقي بي في جنةٍ أخرى لا تشبه الغوايات التي داعبت أحلامي.

فهمت من انجليزيتها اللطيفة الجرس في سمعي أنها تعبت من الوقوف، وتريد استئذاني في الجلوس.

في الحال أنزلت حقيبتي الصغيرة عن الكرسي، وأنا في سري أشكرها مغتبطًا!

آه هـ هـ ، حورية فاتنة تريد الجلوس إلى جانبي ؟!

الأرجح أنها عارضة أزياء على وشك الاشتراك في عرض أسطوري لكبار المصممين في باريس أو روما، حيثُ تمر من هذا المطار، وهي في طريقها إلى دُبي؛ كي تتسوق ثم تواصل رحلتها.

هذا الجمال الغربي الممزوج بحمرة هؤلاء القوم، يجعل دمي العربي يضطرب في رأسي، ويهذي.

أهدتني ابتسامة لطيفة و لا أروع في رقتها، تشكرني !

بوقار بيت الأدب

ما هذا ؟ كل هذه العيون توشك أن تأكلني حسدًا، أو تستكثر النعيم الذي أغرق فيه ! رائحة عطرها تعتقلني في قفص غوايتها، إن روحي ترقص.

واضح أنها شعرت ببعض الحر، لا ألومها؛ فمطارنا قديم و تكييفه لا يليق بمضمون تلك العبارة المضحكة التي تستقبلك من الجسر (مطار الـ.... الراحة و الأمان و الفخامة) !

خلعت كنزتها الصيفية الباهتة الاخضرار؛ لتشتعل أمامي بكتفين عاريين كالسكر.

الحياة الواقعية ليست هكذا .. كأنني أتقمص دورًا في فيلم هوليودي و ها إلى جانبي " أنجلينا جولي " كم هذا مجنون !

أتمنى الساعة لو يسقط منها سهوًا شيءٌ ما، كأن يكون هاتفها، سوف أنتهز الفرصة؛ كي أساعدها فقط، فيفرح قلبي. لكن ألا يبدو أنها متوترة مثلي؟

بوقار بيت الأدب

تعبث بالملصق المعلوماتي المثبت بمقبض حقيبة سفرها، تقرأ ساعتها مرارًا تستعجل الوقت، أو تهرب من شيء يطارد هواجسها بعينين زرقاوتين فيهما المزيد من الجمال، والغربة، وربما حيرة، وقلق.

أعدت النظر بفكرة عرض الأزياء، هذه ليست كذلك بالرغم من أنها تمتلك المؤهلات المطلوبة من رشاقة، وطول، وخصر أهيف.

أظن أنها ربما تكون سيدة أعمال، حقيبة يدها من (شانيل) كما الساعة، أكيد امرأة ثرية، وتستعد لمغادرة البلد من بعد إبرام صفقة استثمارية.

هؤلاء القوم كما أتصورهم دائمًا في قلق مستفحل، فلك حيواتهم يدور في حُمى الأرقام بين " نسداك و وول ستريت " صعودًا أو هبوطًا.

الفكرة تطرق رأسي الآن .. قمتُ من مقعدي، وآثرت شراء كوبين من قهوة " الاسبيرسو " هي قلقة مثلي وأعتقد أن مرارة القهوة الأمريكية كفيلة بتهدئة المزاج، و.. لي مآرب أخرى ! جئتها بعد دقائق كأي (جنتيل مان) وبأدب جم

مقدمًا فيض إحساسي يتبعثر في فناء جمالها شظايا من فرح، هي جارتي ولا بد أن أوليها عنايتي وكرمي.

رائع ! ها ابتهجت هاتان الزرقاوتان، تحركت كأنما تعزف الموسيقى هاتان الشفتان المنحوتتان بكلمات الشكر الممتنة.

كيف انفعلت هكذا محلقًا في فرحتي، فرشفتُ من سخونة السائل المر دونما انتباه، فأحرقت لساني، كويتُ عطشًا متوحشًا يتمرد بداخلي، أُقيد هبله المنفلت، لكنه احترق، وهو يضحك !

تبسمت بعذوبة طاغية في وجهي المرتبك، حضورها هنا بضجيجه اللذيذ هو سر ارتباكِ ربما. مرات كثيرة هنا في المطار، كل فرصة أتعس من سابقتها حيثُ لا تجلس قربي سوى الخادمات الآسيويات المسكينات، والمكدودات ، هيئاتهن حزينات مطحونات، يغادرن البلد بأحلام محروقة كما أعمارهن !

لم أكن أحب رؤيتهن، يداهمني الوجع بقلبي، فأخجل من فرحي بالسفر، لكن هذه المرة أجدني محظوظ، ورطة لذيذة تلك التي جاءت بهذه الحورية إليّ.

ثمن القهوة المرتفع لا أعتبرهُ مستنزفًا من جيبي عبثًا ، ما دمتُ قد داويت بعضًا من لهفة روحي؛ للأنثى.

شيء يجبر ثغرات الوجع أو مُسكن موضعي؛ لهذيان الروح .. آ هـ هـ هـ ولتأكلي يا نفسي من وجبات الخيال المباح ما تشائين !

ثم أن الحلوة ..ما الذي يحدث ؟! مالت برأسها فانسكب شلال هذا الكستنائي الناعم عليّ، لقد توسد لتوّه منكبي الأيمن، كما لو كانت قطة ظريفة تكافئها بوجبةٍ ما، فتشرع بالتودد إليك، فابتهج قلبي، ارتبكت أكثر من أي شيءٍ آخر.

في هذه اللحظة الفاصلة. يا إلهي! هذا صديقٌ قديم على وشك السفر يسحب خلفهُ حقيبته، لمحني فجأة فغمزني بعينه اليسرى رافعًا إبهامه بعلامة (لايك)!

كم يتوتر فرحي الثمل الآن، كوب القهوة في يدي يرتعش، دفء جسدها العاجي يخترق مسامات الروح، صارت ترقص، وتغني !

لا أدري ماذا فعلت بي هذه الأجنبية، كأنما بخار ساخن عما قريب سينفجر من رأسي المضطربة تغلي بمختلف الأفكار المتصارعة.

لا أحتمل أكثر، ما كنتُ أحلم بهذا في منامات الظمأ، يا لطف السماء ارحميني، أتصبب عرقًا، وإحراجًا، فتعود الكثير من العيون تجلدني بنظراتها كأنما تتوعد، تتضايق، تستغرب.

اختبار صعب حقًا، يكاد يسحق أعصابي، تحترق ولا يمكن لها أن تتحمل أكثر.

الصوت يتردد، ها هي بوابة الصعود إلى الطائرة تُعلن استقبال المسافرين، فتنقذني من ضغط الموقف.

سيدتي الجميلة ألا تستيقظين الآن؟

كأنما أنتِ تلك الأميرة النائمة التي تنتظر فارسها، ولكن لا وقت عندي كي أهبك قُبلة الحياة، الطائرة ستقلع بدوني ! ها هي تستيقظ ثم التفتت إلى تجمع

المسافرين عند البوابة، وعادت تريح رأسها على منكبي، نظرت في وجهي وأخبرتني أنها تسافر على نفس الطائرة !

لم أتركها تحمل حقيبتها، ضمت كفيها؛ امتنانا لي، كنت أتمنى لو نجتمع أيضًا بمقعدين متجاورين، فتكتمل ثمالة هذا الحلم، ولكن .. ها قد برز في وجهي فجأة، كان مهتاجًا، والغضب يتفجر في نظراته النارية، زدت خوفًا من ضخامة جثته، كأن بيني و بينه ثأر قديم ترجمهُ بلكمة سريعة، ومؤلمة جدًا، ثم وقعت في حفرة مظلمة.

استيقظت أخيرًا بعد وقت طويل أو قصير لا أدري، فوجدتُ أمامي مضيفة الطائرة تقف قربي، وفي يدها كيسًا من الثلج، نصف مائه قد ذاب على وجهي، بينما قميصي مبقع بقطراتٍ من دمي.

أوف! واضح أن أنفي مكسور كما حلمي.

سألتني إن كنتُ بخير ؟ أخبرتها أنني كذلك، لكن رأسي تدور، وها أنا في حومة وجعي، واختلاط أفكاري أبحثُ عن حورية الحلم، كيف فقدتها؟! كيف هجم

عليّ زوجها فوجدتني متورطًا مع سبق الإصرار، والترصد أستحقُ ذاك (البلدوزر) الذي دهسني، وحول ابتسامتي إلى وجه منتفخ يستثير اهتمام المسافرين، يحدقون في هذا الغبي، أنا حيثُ أتقزم أمامهم، وأمام نفسي، يا له من شعور مقرف للغاية !

يا ربي ! هذا صديقي القديم مرة أخرى في الصف المقابل من مقاعد الطائرة، يشاركني ذات الرحلة، ولم أعلم به، يحدق في وجهي مبتسما مع إشارة (لايك) !

***

" متى يغادرني وجعـــي ؟! "

تأخرت الطائرة عن موعد اقلاعها ، قاعة الانتظار تغص بالركاب ، كيف يتوتر داخلي قبل هكذا موعدٍ قادمٍ مع صندوق معدني طائر ؟ لا أحب الطيران ، حاولت أن أشغل نفسي بالهاتف الجوال ، أتفقد رسائل " واتس آب " ثم أقفز إلى " فيس بوك " ، رسائل تتكاثر من هنا و هناك ، بعضها أو أكثرها دعوات لبرامج أمسيات ثقافية ، أخترت عدم حضورها لكثرة السهل المكرر في خطابنا الثقافي العام . هناك رسائل أخرى مجرد مجاملات من النفاق الإفتراضي المقبول و الشائع !

هكذا وأنا في غمرة انشغالي ، أحسستُ فجأة بهجوم عطري أتحسسهُ وأميزه، ربما هو قادمٌ نحوي هذا العطر الأنثوي الطاغي ، تضج لمقدمه الواجهات الزجاجية للمطار .

بوقار بيت الأدب

ما كدتُ أرفع رأسي و إذ بخيالها هنا يُلقي بي في جنةٍ أخرى لا تشبه الغوايات التي داعبت أحلامي .

فهمت من أنجليزيتها اللطيفة الجرس في سمعي ، أنها تعبت من الوقوف و تريد استئذاني في الجلوس . في الحال أنزلت حقيبتي الصغيرة عن الكرسي و أنا في سري أشكرها مغتبطاً !

آه ه ه ه ، حورية فاتنة تريد الجلوس إلى جانبي ؟! الأرجح أنها عارضة أزياء على وشك الاشتراك في عرض أسطوري لكبار المصممين في باريس أو

روما ، حيثُ تمر من هذا المطار و هي في طريقها إلى دُبي كي تتسوق ثم تواصل رحلتها .

هذا الجمال الغربي الممزوج بحمرة هؤلاء القوم ، يجعل دمي العربي يضطرب في رأسي و يهذي . أهدتني ابتسامة لطيفة و لا أروع في رقتها، تشكرني ! ما هذا ؟ كل هذه العيون توشك أن تأكلني حسداً أو تستكثر النعيم الذي أغرق فيه ! رائحة عطرها تعتقلني في قفص غوايتها ، واضح أنها شعرت ببعض الحر ، لا

بوقار بيت الأدب

ألومها فمطارنا قديم و تكييفه لا يليق بمضمون تلك العبارة المضحكة التي تستقبلك من الجسر (مطار الـ.... ، الراحة و الأمان و الفخامة) ! خلعت كنزتها الصيفية الباهتة الاخضرار لتشتعل أمامي بكتفين عاريين كالسكر . الحياة الواقعية ليست هكذا .. كأنني أتقمص دورا في فيلم هوليودي و ها جانبي " انجلينا جولي " كم هذا مجنون ، أتمنى الساعة لو يسقط منها سهوا شيءٌ ما ، كأن يكون هاتفها ، سوف أنتهز الفرصة كي ما أساعدها فقط فيفرح قلبي . لكن ألا يبدو أنها متوترة مثلي ؟

تعبث بالملصق المعلوماتي المثبت بمقبض حقيبة سفرها ، تقرأ ساعتها مراراً تستعجل الوقت أو تهرب من شيء يطارد هواجسها بعينين زرقاويتان فيهما المزيد من الجمال و الغربة و ربما حيرة و قلق .

أعدت النظر بفكرة عرض الأزياء ، هذه ليست كذلك بالرغم من أنها تمتلك المؤهلات المطلوبة من رشاقة و طول وخصر أهيف . أظن أنها ربما تكون سيدة

أعمال ، حقيبة يدها من (شانيل) كما الساعة ، أكيد امرأة ثرية و تستعد لمغادرة البلد من بعد ابرام صفقة استثمارية . هؤلاء القوم كما أتصور

***

بوقار
بيت الأدب

بوقار
بيت الأدب
Bouvar

"صـــيـد شـــهـــي ؟!"

زحام واضح وسط هذا الحر في سوق السبت، غير أني أتنقل من مكان لآخر، لا رغبة لي في شراء شيء من هذا السوق الشعبي. جئت هنا ظامىء الروح، مائي الذي أريد .. أنثى تمطرني بأشهى حلم، لا حق لأحدٍ أن يصادره مني. ولسوف.. نعم نعم ها هى هناك!

تختبر عند العطار بضاعته، رذاذ القوارير يحاكي القوارير، بين أناملها الصغيرة الرشيقة، الرائحة شيء يأتيك من بساتين أو أكوان أخرى! حتى هيئتها كما هو واضح، هي من ذاك النوع المغناج ، تتجاوب لو المرء أعطى الشرارة الأولى فقط. الشعر مصبوغ و نصفه مكشوف وخطوط خفيفة من مكياج مرهف اللمسات لأنثى تُحسن سرد فتنتها العلنية ولكن بهدوء آسر. يخيل إليّ أنها ترقص في حلبة عطشى بهذين الرمشين المستعارين.. لأقترب أكثر، هي ذي لا تزال تجرب قوارير العطر، تتمتع بذوق صعب الإرضاء ربما،

هنا سوق شعبي بسيطة بضائعه و الكثير منها عبارة عن أنواع رديئة أو علامات تجارية شهيرة ومقلدة، تضيع وقتها لا أكثر.

أه يا رقص قلبي الحائر، قوة جاذبة تطوح بي إليها، أعتقد أن صديقي محمود محق حينما نصحني بتفقد هذا السوق، مادام المرء يتصفح هنا وجوهاً مليحة مثل الزبدة البلدي، تتوهج في شمس الصيف، فتنة ً و غواية ً، فلا خسارة وقت، حتى مع هجوم رطوبة الجو فالأمر يستحق بعض العناء حتى يغني القلب ويثمل.

ها اقتربت من صاحب المحل كأي زبون عادي، هكذا أقلب صفحة وجعي إلى نعيم، اختلاس نظرات خاطفة ستكون برداً وسلاماً على نيران قلبي المصلوب في حمى اللهفة.

بسرعة قبلما تغادر الحلوة، يستحثني شيطاني وهو خائف مثلي ذوبان الفرصة!

بوقار بيت الأدب

البائع بالكاد رد عليّ السلام، طبعاً يعطيها الأولوية و منظرها هكذا وهي تحمل كل هذه الأكياس، تجعلها مطمع باعة السوق بشهيتها المفرطة في التسوق. ها أخذ يجمل لها تلك القوارير المقلدة السخيفة. عطور سيئة يا حلوة، ها أنا أمامك، عطر قلبي أحلى لو تجربين شذاه؟!

لو تمكنت من تفجير عبارتي، لبردت نيراني.. الحلوة كما أرى من ذات الطينة التي تتوافر في المجمعات التجارية، أسمائهن تختلف و الشكل واحد، هكذا أخبرني محمود، هي مواصفات الفتاة المناسبة للصيد! تتقبل الفتى الجرىء، عليه فقط المبادرة، لا أدري إن كنت سأنجح. كم هي جميلة، تخط حاجبيها بالكحل كما هي الموضة الرائجة عند فتيات اليوم، أما الحناء فهو ولا أروع من لوحة فنية منقوشة على وجه كفيها الرقيقين. ما أروع حلم النهار في هاتين العينين، كأنما هي تنام على صدري وأذوب معها في رقصة حب، مقطوعة موسيقية من سحر الليالي حيث نتمايل من فرط النشوة و الفرح، هي هكذا وأكثر. تبحث عن عطرها السحري، لم تحدد أي نوع، كما أنا لم أحدد بعد أي العبارات الأصلح"صيد شهي؟!".

بوقار بيت الأدب

زحام واضح وسط هذا الحر في سوق السبت، غير أني أتنقل من مكان لآخر، لا رغبة لي في شراء شيء من هذا السوق الشعبي. جئت هنا ظامىء الروح، مائي الذي أريد .. أنثى تمطرني بأشهى حلم، لا حق لأحدٍ أن يصادره مني. ولسوف .. نعم نعم هي ذي هناك!

تختبر عند العطار بضاعته، رذاذ القوارير يحاكي القوارير. بين أناملها الصغيرة الرشيقة، الرائحة شيء يأتيك من بساتين أو أكوان أخرى! حتى هيئتها كما هو واضح، هي من ذاك النوع المغناج، تتجاوب لو المرء أعطى الشرارة الأولى فقط. الشعر مصبوغ و، نصفه مكشوف، وخطوط خفيفة من مكياج مرهف اللمسات لأنثى تُحسن سرد فتنتها العلنية ولكن بهدوء آسر. يخيل إليّ أنها ترقص في حلبة عطشى بهذين الرمشين المستعارين.. لأقترب أكثر، هي ذي لا تزال تجرب قوارير العطر، تتمتع بذوق صعب الإرضاء ربما، هنا سوق شعبي بسيطة بضائعه و الكثير منها عبارة عن أنواع رديئة أو علامات تجارية شهيرة ومقلدة، تضيع وقتها لا أكثر.

بوقار بيت الأدب

أه يا رقص قلبي الحائر ، قوة جاذبة تطوح بي إليها، أعتقد أن صديقي محمود محق حينما نصحني بتفقد هذا السوق، مادام المرء يتصفح هنا وجوهاً مليحة مثل الزبدة البلدي، تتوهج في شمس الصيف، فتنة ً و غواية ً، فلا خسارة وقت، حتى مع هجوم رطوبة الجو فالأمر يستحق بعض العناء حتى يغني القلب ويثمل.

ها اقتربت من صاحب المحل كأي زبون عادي، هكذا أقلب صفحة وجعي إلى نعيم، اختلاس نظرات خاطفة ستكون برداً وسلاماً على نيران قلبي المصلوب في حمى اللهفة.

بسرعة قبلما تغادر الحلوة، يستحثني شيطاني وهو خائف مثلي ذوبان الفرصة!

البائع بالكاد رد عليّ السلام، طبعاً يعطيها الأولوية و منظرها هكذا وهي تحمل كل هذه الأكياس، تجعلها مطمع باع...

" ذاك الضــباب "

بدأ كل هذا من اللحظة التي مرض فيها أبي وتدهورت حالته، تحول لون جلده إلى صُفرة كئيبة تشبه ما تبقى من شجرة الليمون المزروعة وسط فناء البيت، ورقها يتساقط بكثافة، نهيتُ أخي علي عن قطعها والخوف يسكنني، مرتاب مما قد يحصل في الأيام القادمة، لم أخبره بأنني أربط في ذهني مشهد قطعه الشجرة وأقابله بوجه أبي الشاحب الذي تذوي عافيته يوماً بعد يوم، ربما يسخر من شعوري القلق.

لكن بعد مرور ثلاثة أيام على زيارتي الأخيرة للبيت، حضرت مسرعاً كالعادة وأنا أحمل بعض الفواكه، كنت نسيت هاتفي في الشقة التي أسكنها، تذكرت لكن في التوقيت الضائع دخلت وسلمت على أمي، تجلس بصمت لعلها قلقة وتفكر فيما آل إليه حال رفيق دهرها، لفت انتباهي أنها مقطوعة بمنشارٍ آلي ثم ظهر هو ويديه ملوثتين ببقايا السماد، نصف البيت مزرعة وهو هنا لم

بوقار بيت الأدب

يغادر مثلي كما فعل شقيقنا كريم على آثر البقاء في البيت وتزوج ابنة عمي " سليمة ".

فصحت في وجهه محبطًا: قلت لك لا تقطعها، أنت لا تفهم؟!

نظر في وجهي باستخفاف وهو ما استفزني فعلًا، قلبك رقيق أكثر من اللازم، شجرة شاخت وماتت، لماذا أعطيها سماد وماء بلا فائدة؟!

هذا الأخ سلوكه ذكوري غليظ ولا يفهم قبل أن أتبادل معه الانفعال ألتفت لأمي تلوح بكفيها وكان صوتها ضعيفًا، تنهاني عن افتعال المشاكل كمن يطلب الهدوء وضعت أكياس الفواكه، تخندقت في صمتي وألجمت ردة فعلي بالرغم من علامات الانتصار البادية على وجه أخي، كان يظهرها بلا خجل وكأنه ذاك المراهق الأخرق.

عملًا بطلب أمي صرفت نظري عنه، دخلت حجرته وهو على حاله، يئن من كليته، حيث لا قدرة لنا على تحمل مصاريف علاجه، حتى عندما قررت أنا بالتبرع له، أثبت الفحص أنه لا فرصة لذلك، كلنا توافقنا بما يشبه التواطؤ

المستسلم، أنه قدره وعليه البقاء متوجعاً حتى تفيض روحه إلى خالقها! نعم هذه قسوةٌ منا، ولكن ما حيلتنا؟

الواحد منا ينوء بما عليه من قروض وأقساط والكثير من المصائب الحياتية التي تجبر المرء على الرقص فوق صفيح الحياة الساخن لا يستقر على جهةٍ تؤوي شتاته وهو يلهث في كل الجهات، أشحت بوجهي متألمًا، قبل أن يلتفت نحوي، لا أقوى على رؤية عينيه الذابلتين من وهج الحياة، أبي المسكين؛ ما من أحدٍ الآن يرفع عنك حطب وجعك سوى ربك، سامحنا!

بدأ صوته يخفت قد يكون ألمه يهدأ نوعاً ما في ظني؛ فابتعدت عن الباب وجلست مع أمي أشاركها الصمت، لا أطيق مجرد الكلام، ردة فعلي ستكون على الأرجح مكررة كما بقية الأيام الماضية كالتمني له بالشفاء أو دفع صدقةٍ عنه أو الطلب من المصلين في الجامع بالدعاء له، كل هذا تجاوزناه ، لأن هذه الحفرة لا فرار من حتميتها الآن يا أبي!

نعم، فمرارة الكأس التي تترصدنا، لا خيار لنا إلا تجرعها، تكرر أنينه وصرنا نجامل أنفسنا بأن الفرج آتٍ ثم وجدناه يرتعش في اللحظات الأخيرة، سكن جسده بكل خشوع الموت وصمته الرهيب، لم يبدُ على وجه علي سوى مسحة تأثرٍ طفيف، وهو يعلن: ترحموا على روح الوالد كأن ما حدث شيء مكرر كنت قد رسمته في أفكاري القلقة، علي وفخرية وكريم، صار الكل يطالب بنصيبه من الإرث، الكل يلهث في ركضه لكيلا تفوته كعكة الإرث في حفلٍ بائسٍ يرقص في ساحته إبليس ساخرًا من شحنات غضبنا المتبادل، فلا أحد يقبل بدعة ورقة بيع نصف مساحة البيت لعلي والموقعة من أبي كما يدعي، ما الذي جعل أمي موقفها غامضًا على هذا النحو؟! اعتصمت بالصمت حتى عندما سألتها عن موقفها لم تجبني، صرت معلقاً على حبال الحيرة، والبقية لا يجتمعون إلا لتبادل الانفعال والجدال والكل يريد نصيبه من مساحة البيت الصغير! لم يلاحظ أحدٌ منهم كيف أنها صارت تذبل يوماً بعد يوم، تعاف الزاد، بدأت عضام وجهها تبرز وصوتها اختفى فصامت عن الكلام؛ خفت أنها ربما ... طردت إبليس لكيلا يبث في عقلي تصورات سخيفة يخبرني بأنها مقدمات لرحيل أمي

كمدًا على أبي وبقية أسرتها تتنازع على حصص الإرث؛ ابعدت هذا الهاجس عني وتخلصت منه وأقنعت نفسي ولو كذبًا أنني محق ولكن بعد تصرم حوالي أسبوع وثلاثة أيام، فجأة رحلت أمي عن وجه هذه الدنيا! يكاد لا يكون هناك فارق زمني بين رحيل أبي ثم أمي غير ثلاثة أشهر وحسب، هشاشتنا أمام امتحانات الحياة مضحكة بينما ندعي دائماً أننا لا نُهزم ونمارس ذاك الكبرياء المزيف ورقة هي المأزق، حيث لا أفق للحل وأخونا علي متمسك بمصداقية موقفه الذي جعلنا نقف أمام أبواب المحاكم، ما أتعسنا على هذا الحال. بقية المزرعة أزداد اصفرارها بشكل غامض كما لو أنها أصيب بمرضٍ ما، اوفر لها الماء والسماد لكن بلا جدوى وصرت أتخلص في كل مرة من شجرة هنا أو هناك، استبدلت التربة ووضعت بضع شتلات وأنا اترقبها لكن ذوت فزاد هذا من حيرتي، فتكلمت مع فخرية: لا تستغرب، فهذا البيت صار ملعوناً!

فخرية ماذا تقولين؟!

بوقار بيت الأدب

- ألا ترى حالنا؟ كل القرية صارت تعرف ! لكن أنا ما عدت أحتمل خساسة أخي علي

- .....

- جيد أنك مصدوم، أقلها حتى تتأهب لمعرفة سِر صمت أمي التي ماتت بحسرتها، أخونا علي لن يربح، أ تعرف أن أمي دخلت حجرة أبي بينما هو كان يفعل فعلته.

- تقصدين أنه ...

- نعم بكل تأكيد، امسك بإبهام أبي وجعله يبصم أوراق الزور التي بحوزته، عاتبته أمي وقبحت من عمله. أنا شاهدة على كل هذا أمام الله.

- وماذا حصل بعدها؟

- حضرته أخونا، هدد أمنا بأنها لو تفوهت بكلمة، فلن يتردد عن حرقها وهي حية!

بوقار بيت الأدب Bouvar

- لا، لا، هذا غير معقول!

- تفضل، هذا هو تسجيل موقف ذاك اليوم، الدليل الذي سيقلب الطاولة على أخونا أبو الحق والواثق من عدالة مطالباته!

كدت أفقد وعيي لما استمعت للتسجيل من هاتفها، ولكن أنجلى ذاك الضباب الذي كان يلفنا، آلاف الأفكار تحوم في رأسي ولا أدري كيف أتصرف؛ لكنها قالت:

_ما رأيك ؟

- تظلين ساكته كل هذه المدة والآن ...

- سأحسم الموقف، أخونا مجرم لمّا رقص مع إبليس.

- تريدين توريطه حتى يُسجن؟ علي أخونا و...

- لكن الحق حق وأنت قرر موقفك الآن.

ثمة أشباح ترقص في رأسي ولا أدري ما الذي يحدث لي، تحدق فيّ وهي تنتظر قراري، فأضيع في متاهةٍ مظلمة.

***

الفهرس

"حُلم منتهي الصلاحية ؟!" ٤
"من أجل الأيام الخوالي" ١٥
"كيف يُقتنص التفاح؟" ٢١
"أشتت ذلك الدخان" ٢٩
"وترقصين" ٣٩
"حُفرة" ٥٤
"ذات صباح" ٦١
" مناوبة ليلية " ٦٩
" وهي مستريحة " ٧٨
"أحاسيس أسمنتيه تتصدع" ٨٦
"معادلة بسيطة" ٩٤
"ها أنا الآن أكوي جرحي" ١٠٢
" ورطة لذيذة ! " ١٠٨
" متى يغادرني وجعي ؟! " ١١٧
"صيد شهي ؟!" ١٢١
" ذاك الضباب " ١٢٦